# تاريخ ما بين السطور
## الحقيقة تصل متأخرة دائما

رمضان مصطفى سليمان

# رصيفُ الظلال
# حكايةُ الرجلِ الذي ماتَ باسمٍ ليس له

على أعتاب كنز القراصنة

حين انتصر الفضول على الخوف

كانت صديقتنا في ذلك الصباح تبدو كأنها خرجت لتوّها من إحدى حكايات المدن العتيقة؛ امرأة تحمل في عينيها ذلك البريق الذي لا يهدأ، بريق الباحثين عن الأسرار المدفونة خلف الأبواب المغلقة.

دخلتُ المكتب مبكرًا على غير عادتي ، وكانت الشمس تتسلل بخيوط ذهبية باهتة عبر النوافذ العالية، فتسقط على أكوام الملفات القديمة المكدسة فوق الرفوف. هناك، بين رائحة الورق المعتّق وغبار السنين، كنت أبحث عن شيء بدا للآخرين مجرد أوراق مبعثرة، لكنه بالنسبة إليّ كان مفتاحًا لعالم كامل غارق في الظلام.

ألقت تحية الصباح بصوتها المرح، فارتجّ سكون الغرفة قليلًا.

صباح الخير.

كان صوتها يشبه خرير نافورة صغيرة تتدفق في ساحة مدينة قديمة، مدينةٍ مرت عليها قرون من الحب والحروب والنسيان.

أجبتها دون أن أرفع رأسي : صباح النور.

لكنها لم تنصرف.

شعرتُ بنظراتها تلاحقني.

كنت أتنقل بين الأدراج بسرعة رجل يطارده الزمن ، أقلب الملفات، أفتح الخرائط، وأغلقها، وأعيد ترتيب الأوراق ثم أبعثرها من جديد.

أما هي فكانت تراقب. راقبت بصمت طويل. وصمت الفضوليين أخطر من أسئلتهم.

وفي داخلي ابتسامة خفية.

قلت لنفسي : عجيب أمر النفس البشرية... كم تستطيع مقاومة السؤال ؟ وكم يمكن للمرأة أن تصبر أمام سرّ يلوح لها ثم يختفي ؟

كان الحكماء العرب يقولون :

النفس مولعةٌ بحبّ الخفيّ، وكلُّ ممنوعٍ مرغوب.

أما صديقتي ، فقد بدت في تلك اللحظة كفارس يطوف حول قلعة مغلقة، يبحث عن ثغرة يدخل منها.

مرت دقائق. ثم عشر دقائق. ثم ربع ساعة. كنت خلالها أفتعل الانشغال أكثر مما أعمل. وكانت هي تفتعل الصبر أكثر مما تحتمل.

وأخيرًا... انتصر الفضول. نهضت من مكانها. اقتربت. مدّت يدها فجأة نحو ملف صغير موضوع على طرف الطاولة. لكنني كنت أسرع منها. اختطفته قبل أن تلمسه بلحظة.

توقفت. حدّقت في وجهي.

ثم قالت بلهجة قاضٍ عجوز اعتاد انتزاع الاعترافات :

ما هذا الملف ؟

صمتُّ.

فأكملت : ولماذا تخفيه عني ؟

رفعت رأسي ببطء. وتأملتها. كانت عيناها متسعتين كعيني طفل اكتشف بابًا سريًا داخل قصر مهجور.

قلت في هدوء مصطنع : إشفاقًا عليكِ.

ارتفع حاجباها.

إشفاقًا عليّ ؟

نعم.

ومنذ متى أصبحتَ رحيمًا إلى هذا الحد ؟

ضحكتُ. لكنها لم تضحك.

كانت تعرف أنني أخفي شيئًا.

جلست على حافة المكتب، وعقدت ذراعيها أمام صدرها.

ثم قالت : أوراق رحلة جديدة ؟

ربما.

رحلة إعلامية ؟

ليس تمامًا.

مؤتمر دولي ؟

لا.

تحقيق صحفي ؟

أقرب.

تنهدت بضيق. ثم قالت :

لماذا أشعر أنك تستمتع بتعذيبي ؟

قلت : لأنك تستمتعين بالتجسس.

فضحكت رغماً عنها. لكنها عادت سريعًا إلى جديتها.

تكلم.

أطفأت ضحكتي. و أشعلت سيجارة. ر اقبت خيط الدخان وهو يصعد متلوياً نحو السقف.

ثم قلت : لأنني متأكد أنك سترفضين.

ساد الصمت.

أرفض ماذا ؟

مرافقتي.

إلى أين ؟

أجبت : إلى مكان قد لا نعود منه بسهولة.

حدقت في وجهي. وأدركت أنني هذه المرة لا أمزح.

فقالت : تكلم بوضوح.

قلت : الرحلة ليست إلى مدينة سياحية. وليست إلى مؤتمر. وليست إلى عاصمة أوروبية أنيقة. إنها رحلة إلى قلب التاريخ. إلى مكان ما زالت رائحة البارود عالقة في هوائه. إلى مكان كانت السيوف

فيه أبلغ من القوانين. والمدافع أصدق من الكلمات. إلى عالم عاش فيه رجال يبيعون البشر كما تُباع الخيول.

رجال كانوا يخطفون النساء من السواحل ويقايضونهن بالذهب. رجال جعلوا البحر مملكة للخوف.

شهقت : قراصنة ؟

قلت : نعم.

فتراجعت نصف خطوة.

أعوذ بالله !

اذهب وحدك إذن.

ما هذا الجحيم الذي تفتش عنه كل مرة ؟

ضحكت. وأدركت أن الطعم بدأ يعمل.

قلت بهدوء :

لو قرأتِ الملف جيدًا لعرفتِ أنني لا أبحث عن القراصنة.

إذن ماذا ؟

اقتربت منها قليلاً.

ثم قلت : أبحث عن كنز.

ضحكت ضحكة عالية. حتى إنها وضعت يدها على فمها.

كنز ؟ في القرن الحادي و العشرين ؟ أحقًا ما زلت تؤمن بهذه القصص ؟

قلت : ليست قصصًا. بل وثائق. وخرائط. وشهادات بحرية. ومذكرات ضباط. وأحكام محاكم. وتقارير حكومية. كلها تشير إلى شيء واحد. كنز مفقود. اختفى منذ أكثر من ثلاثة قرون.

ساد الصمت.

ثم قالت : وكم يساوي ؟

ابتسمت. لقد وصلت إلى السؤال الحقيقي.

قلت : أكثر مما تتخيلين. أكثر مما يملكه بعض الأثرياء. أكثر مما تنفقه دول صغيرة في أعوام.

ارتبكت ملامحها.

ثم قالت : هل تتحدث بجدية ؟

كاملة.

وأين يوجد ؟

هذا ما سنكتشفه.

ثم أضفت : لكنني أعرف مكان البداية.

وما هو ؟

قبرٌ قديم منسي. و خرائط مخبأة. و رسالة مشفرة. و سفينة غرقت ولم تُعثر عليها قط.

كانت تنظر إليّ الآن بعينين مختلفتين. عينين امتلأتا بصورٍ لم تولد بعد. عينين راحتا تتخيلان الذهب. و الجواهر. و صناديق الخشب القديمة. و الأسرار المدفونة في قاع البحر.

وفي تلك اللحظة أدركت شيئًا مهمًا. الخوف قد يسيطر على الإنسان ساعات. لكن الخيال يسيطر عليه أعوامًا.

قالت فجأة :

وهل ستأخذ الكنز وحدك ؟

ضحكت.

بدأتِ تفكرين في الكنز إذن ؟

أجبني.

قلت : ربما أهديك عقدًا من الماس. أو زمردة هندية. أو ياقوتة زينت عنق أميرة ذات يوم.

ابتسمت.

ثم قالت : هذا ليس من طبعك. أنت بخيل حتى في الأحلام.

قلت : الكنوز تغيّر النفوس.

فقالت ساخرة : بل تكشف النفوس.

وساد صمت قصير.

كنت أراقبها. وأراقب التحول الذي يحدث داخلها. قبل دقائق كانت تفكر في الخطر. والآن أصبحت تفكر في الغنيمة.

وهكذا هي النفس الإنسانية. تخاف أولاً. ثم تحلم. ثم تطمع. ثم تبرر لنفسها الطمع باسم المغامرة.

قلت : تخيلي مئةً وعشرين سفينة تجارية. ذهب إسباني. وأحجار كريمة هندية. وعاج إفريقي. وحرير شرقي. وعقود صنعتها أنامل دمشق. وتحف جاءت من جنوة والبندقية. وماسات لم ترَ ضوء الشمس منذ ثلاثمئة عام.

أغمضت عينيها لحظة. وكأنها ترى المشهد.

ثم قالت : صندوق واحد ؟

ربما.

وكل هذا بداخله ؟

وربما أكثر.

فتحت عينيها فجأة.

و قالت : ولهذا تريد الذهاب وحدك ؟ أيها الأناني !

ضحكت.

والله ما أردت إلا حمايتك.

فضربت الطاولة بكفها.

كاذب.

ثم أشارت إليّ بإصبعها : أنت تخاف أن أشاركك الكنز.

قلت : ربما.

قالت : إذن اسمع جيدًا. سأسافر معك. وسأحصل على نصفه.

قلت : نصفه ؟

نعم.

دون تفاوض ؟

دون تفاوض.

ثم أضافت : بالمناسبة... كنز من ؟ أي قرصان هذا؟

وهنا فقط تغيرت ملامحي. لأن السؤال أعادني إلى أصل الحكاية. إلى ذلك الاسم الغامض الذي ظهر في الوثائق ثم اختفى. إلى الرجل الذي حيّر المؤرخين. إلى البحّار الذي تحول إلى أسطورة.

قلت : هنا تبدأ المشكلة. فأنا لا أعرف اسمه الحقيقي يقينًا. هناك خلاف تاريخي حول شخصيته. بل إن بعض المؤرخين يشككون أصلًا في وجوده.

اتسعت عيناها.

هذا أجمل ! أسطورة حقيقية !

قلت : أو حقيقة تحولت إلى أسطورة.

ثم أضفت : ولهذا ستكون مهمتنا مزدوجة. أن نكشف للرأي العام حقيقة ذلك الرجل. وأن نعثر على الكنز.

ابتسمت.

ثم قالت : الآن بدأت أحب الرحلة.

ثم مالت نحوي في دلال و سألت : ومن أين نبدأ ؟

لم أجب مباشرة. بل نظرت عبر النافذة.

كانت الشمس ترتفع ببطء فوق المدينة. والزمن بدا كأنه يتراجع إلى الوراء. إلى الوراء كثيرًا. إلى زمن السفن الشراعية. وزمن الإمبراطوريات البحرية. وزمن الرجال الذين كانوا يغيرون خرائط العالم من فوق ظهر سفينة.

وفي أعماقي شعرت بشيء يشبه النداء. نداء التاريخ. ذلك النداء الذي لا يسمعه إلا من أدمنوا مطاردة الحكايات الضائعة.

تمتمت كأنني أخاطب نفسي :

ومن يتهيب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر

ثم رفعت رأسي. ونظرت إليها.

و قلت : سنبدأ من لندن.

لندن ؟

نعم.

ومتى ؟

بعد أيام قليلة.

و لماذا لندن ؟

ابتسمت ابتسامة رجل يرى الماضي بعينيه.

ثم قلت ببطء : لأن الحكاية بدأت هناك...

عند أرصفة ميناء لندن... في شتاء عام 1701. حيث كانت السفن تمخر الضباب الكثيف. وحيث كان الذهب القادم من المستعمرات يلمع في خزائن الإمبراطورية. وحيث كان رجل مجهول يقف على رصيفٍ بارد، يراقب البحر بعينين لا تشبهان أعين البشر العاديين. عينين تخفيان سرًا سيغير مصير الجميع. سرًا سيبقى مدفونًا ثلاثة قرون... في انتظار من يجرؤ على البحث عنه.

# بداية القصة

كانت صديقتنا في ذلك الصباح تنظر إليّ بعينين يشتعل فيهما فضولٌ أنثويٌّ لا يهدأ؛ فضولٌ يشبه قطةً برّيةً تحوم حول بابٍ موصد، تستنشق رائحة الأسرار من خلف الخشب العتيق.

منذ أن دخلتُ المكتب، وألقت تحية الصباح بصوتها المرح الذي يشبه خرير نافورة صغيرة في ساحةٍ قديمة، وهي تراقبني في صمتٍ متحفّز، ترمق حركتي العجلى بين الأدراج، وتقليب الأوراق الصفراء، والملفات التي علاها غبار السنين.

كنتُ أبعثر المكتب بعصبية رجلٍ يحاول أن يخفي البحر داخل قارورة.

أما هي، فكانت تكتم السؤال بصعوبة، بينما كنتُ أنا أكتم ضحكةً كادت تفلت من صدري؛ فقد اكتشفتُ، لأول مرة، أن لهذه المرأة قدرةً خارقة على مقاومة الفضول، ولو إلى حين.

وفي داخلي تساءلتُ ساخرًا : متى تهزمها طبيعتها ؟ ومتى تنتصر المرأة على شهوة كشف المستور ؟

لكن النفس البشرية ، كما قال الحكماء ، لا تصبر طويلًا أمام بابٍ مغلق.

وفجأة تقدمت نحوي بخطواتٍ واثقة، ومدّت يدها إلى ملفٍ صغير فوق الطاولة، التقطته بسرعة خاطفة، ثم قلبته بين أصابعها وقالت بنبرة تشبه استجواب قاضٍ عجوز : ما هذا ؟... ولماذا تخفيه عني ؟

رفعتُ رأسي إليها ، وقلتُ في هدوءٍ مصطنع :

إشفاقًا عليكِ يا صديقتي ... لا أكثر.

ضيّقت عينيها، وجلست على حافة المكتب كأنها تستعد لانتزاع الاعتراف بالقوة.

أوراق رحلة إذن ؟... رحلة إعلامية جديدة ؟ ولماذا قررت هذه المرة أن تخرجني من اللعبة ؟

تنهدتُ ببطء، وأشعلت سيجارة، ثم قلت :

لأنني، بعد تفكير طويل، أدركتُ أنكِ سترفضين مرافقتي حالما تعرفين الحقيقة... ولو طلبتُ منك السفر معي لنلتُ منكِ ما أكره.

إلى هذا الحد ؟

الرحلة يا سيدتي ليست إلى مؤتمر صحفي، ولا إلى مدينة سياحية. إنها رحلة قد تضعنا في مواجهة السيوف والخناجر والمدافع... رحلة بين رجالٍ لا يعرفون الرحمة، يبيعون النساء كما تُباع الخيول في أسواق النخاسة، أو في أسواق سوداء تُقام فوق ظهور سفن القراصنة.

شهقت وهي تتراجع نصف خطوة : قراصنة ؟!

أعوذ بالله... اذهب وحدك إذن ، مع السلامة ! وأيُّ جحيمٍ تنوي تغطيته هذه المرة ؟

ابتسمتُ ابتسامة رجلٍ يعرف أن الطُعم بدأ يعمل.

و قلت : لو قرأتِ الملف جيدًا لأدركتِ أنني ذاهب للبحث عن كنز.

ضحكت ساخرة : كنز ؟! أفي هذا العصر ما تزال الكنوز موجودة ؟

قلتُ ببطء ، وأنا أراقب بريق الفضول يعود إلى عينيها :

الكنز الذي أبحث عنه تتصارع عليه الحكومات قبل الأفراد... ووفق القانون الدولي فهو ملك لمن يعثر عليه.

رفعت حاجبيها في سخرية : وأنت وحدك من يعرف مكانه ؟ نعم... وعلى نحوٍ دقيق أيضًا.

ثم اقتربتُ منها هامسًا : وربما... من أجل صدقاتنا القديمة... أهديكِ عقدًا من الماس ، أو قلادة من الياقوت الأزرق ، أو زمردة خضراء كانت يومًا تزين عنق أميرةٍ هندية.

ضحكت وقالت : هذا ليس من طبعك... أنت رجل يحتفظ بكل شيء لنفسه.

قلت ضاحكًا : ربما... لكن الكنوز تغيّر النفوس.

ثم أضفتُ، متعمدًا أن أوقظ جشع الخيال في رأسها :

تخيلي غنائم مئةٍ وعشرين سفينة تجارية... ذهبٌ إسباني، وأحجار كريمة من الهند، وقلائد صنعتها أنامل دمشق، وتحف من جنوة، وعقود مرصعة بماسات لم ترَ الشمس منذ ثلاثة قرون.

وسكتُّ لحظة، ثم قلت :

صندوق واحد فقط... مدفون في مكانٍ لا يعرفه غيري.

كانت تنظر إليّ الآن كما ينظر طفلٌ جائع إلى نافذة مخبز.

وقالت بحدة : ولهذا قررت أن تستأثر بكل شيء لنفسك ؟ أيها الأناني !

قلت مبتسمًا : والله ما أردتُ إلا حمايتك.

فضربت الطاولة بكفها و قالت : كاذب ! أنت تخشى أن أشاركك الكنز لا أكثر.

ثم أشارت إليّ بإصبعها قائلة :

لكنني لن أتركك تبتلع الثروة وحدك. سأحصل على موافقة الإدارة، وسأسافر معك... وسآخذ نصف الكنز.

ضحكتُ : نصفه دفعة واحدة ؟

بالطبع.
بالمناسبة... كنز من ؟ أي قرصان هذا ؟

قلت ساخرًا : كأنك تعرفين قراصنة التاريخ جميعًا.

فرفعت رأسها بكبرياء وقالت :

بل أعرفهم أكثر مما تعرفهم أنت.

ثم بدأت تتحدث بصوتٍ واثق ، كأنها تفتح كتابًا غارقًا في الدم :

توماس رويك... ووليم ميز... وجون إبريس ... إنجليز سرقوا البحار .ولافيت وسيركوف الفرنسيان .وجاسباريلا الإسباني الذي كانت رائحته تسبق سفنه إلى الموانئ.

ثم مالت نحوي وقالت : ولا تنسَ النساء ...أكيلا لاورو البرازيلية... ومدام شينج الصينية التي حكمت البحر كما يحكم الملوك اليابسة ...وساكورا اليابانية، التي كانت تقتل الرجال وهي تبتسم.

تأملتها بدهشة.

أما هي، فواصلت كأنها تعيش بينهم :

وأعتى القراصنة العرب دون شك هو خير الدين بربروس.

فقلت معترضًا : هنا تخطئين.

خير الدين لم يكن قرصانًا، بل بطلًا قوميًّا. لقد دافع عن سواحل المغرب العربي، لكن الأوروبيين شوّهوا صورته لأنهم كرهوه.

ابتسمت ابتسامة المنتصر : ربما... لكنك ما زلت تخفي اسم القرصان الذي تنوي سرقة كنزه.

تنهدتُ، وقلت : الحقيقة... أنني لا أعرف اسمه الحقيقي يقينًا . هناك خلاف تاريخي حول شخصيته .ورحلتنا هدفها مزدوج : أن نكشف للرأي العام حقيقة ذلك القرصان الإنجليزي ...ثم نعثر على كنزه.

ثم أضفت ضاحكًا : أما الكنز... فلا بأس من اقتسامه معكِ، وأمري إلى الله.

سألتني بسرعة : ومن أين نبدأ ؟

أجبتها، وأنا أغمض عيني كمن يرى الزمن القديم :من لندن... من أرصفة ميناء لندن سنة 1701.

⊥

كانت السماء رمادية كوجه أرملة عجوز ، والضباب يهبط على الميناء مثل كفنٍ بارد. صرخات البحارة، واحتكاك السلاسل، ورائحة القطران والخشب المبلل... كل شيء هناك كان يوحي بأن البحر لا يمنح خيره إلا بعد أن يشرب دمًا.

قالت صديقتي وهي تنظر حولها بامتعاض :

ها نحن في ميناء لندن... ولا أحد يأبه بنا.

قلت : سنجد ما نبحث عنه عند الرصيف رقم سبعة.

وأين هو؟

لنسأل ذلك البحار.

لكنها سبقتني إليه.

قالت بلطف : أيها السيد، أين الرصيف رقم سبعة ؟

نظر البحار إليها بدهشة ، ثم قال :

آنسة رقيقة مثلك... تريد الذهاب إلى الرصيف رقم سبعة ؟

ولم لا ؟

ابتلع الرجل ريقه وقال بصوتٍ خافت :

لأنكِ لن تحبي ما سترينه هناك.

تدخلتُ قائلاً : وما الذي سنراه ؟

اقترب منا البحار هامسًا : الرعب نفسه.

شعرتُ بقشعريرة تسري في ظهري.

وسألته : ماذا تقصد ؟

قال : هناك... عند الرصيف رقم سبعة... يتدلّى الشيطان من حبل المشنقة.

ثم أضاف : ليس من السهل دخول المكان، الحراسة مشددة... لكنني أستطيع إدخالكما مقابل شلن واحد.

دفعت صديقتي الشلن وهي تتمتم بضيق : ما أبخل الإنجليز... حتى الرعب له ثمن هنا.

وسرنا خلفه. كلما اقتربنا من الرصيف كان الهواء أثقل، والوجوه أشحب، والبحارة يتجنبون النظر إلى الأعلى.

ثم رفعت صديقتي رأسها فجأة... فشهقت شهقة اخترقت الضباب.

كان هناك جسدٌ بشري يتدلّى داخل قفصٍ من الحديد، مقيدًا بالسلاسل حتى الجمجمة، كأن الموت نفسه خاف أن يهرب منه.

تراجعت وهي ترتجف : يا إلهي...

أما أنا فشعرتُ أن التاريخ كله يحدق فينا بعينٍ واحدة دامية.

قال البحار بصوتٍ منخفض : هذا هو... الكابتن وليم كيد... أشهر قراصنة الدنيا.

دخلنا بعد ذلك إلى حاكم الميناء. كان رجلاً عابسًا، يحمل على وجهه قسوة البحر وملل السلطة.

قال لنا : نعم... تلك الجثة هي جثة وليم كيد.

ثم أخذ يروي القصة.

وكان صوته باردًا كصوت قاضٍ يقرأ حكمًا بالإعدام للمرة الألف.

قال : حين جيء به إلى هنا كان يصرخ طوال الطريق : أنا لست القرصان كيد... أنا عضو مجلس أعيان نيويورك.

ثم ضحك الحاكم ضحكة قصيرة وقال :

لكنه ظل يكرر ذلك حتى لحظة وضع الحبل حول عنقه.

شعرتُ وأنا أستمع إليه بشيءٍ غامض يضغط قلبي.

ترى...هل كان الرجل كاذبًا ؟ أم أن العالم أحيانًا يقتل الأبرياء ثم ينام مطمئنًا ؟

قال الحاكم : حتى بعد الحكم... عرضوا عليه النجاة إن دلّهم على مكان الكنز ، لكنه أقسم أنه لا يعرف شيئًا.

ثم صمت لحظة وأضاف : والغريب... أن بعضنا بدأ يشك فعلًا في هويته.

تبادلتُ أنا و صديقتي النظرات.

ثم قال الحاكم بصوتٍ أخفض : هناك صورة في مبنى الغرفة التجارية البحرية لرجل يدعى السيد وليم كيد... وجهه مطابق تمامًا لوجه المشنوق... إلا من ندبةٍ على الخد.

شعرتُ عندها أن أبواب السر بدأت تنفتح ببطء.

أما صديقتي ، فكانت تحدق في الجثة المعلقة بعينين حزينتين.

وهمست : ما أقسى التاريخ... أحيانًا يشنق الإنسان مرتين ؛ مرة بالحبل... ومرة بالحكاية.

وسرنا نحو مبنى الغرفة التجارية ، بينما كان الضباب يبتلع الرصيف خلفنا ، والجثة ما تزال تتأرجح فوق البحر كساعةٍ سوداء تعدّ خطايا البشر.

لكنني، لسببٍ لم أفهمه، كنت أشعر أن هذا الطريق لن يقودنا إلى كنزٍ من الذهب فقط... بل إلى جريمة دفنتها القرون تحت ركام الصمت.

# كنز كابتن كيد
# ظلال البحر... وأسرار قلعة ورشيب

وما زلنا نطارد ذلك السرّ العتيق الذي يسمّيه الناس :**كنز القرصان كابتن كيد**.

ذلك الكنز الذي أغواني صاحبه أو شبحه بوعدٍ نصفه ذهب ونصفه لعنة. كان يحدثني، في ليالٍ يختلط فيها الضباب برائحة الملح، أنّ القانون الدولي لا يعترف بملكية كنوز القراصنة ما دامت مدفونة في جوف الأرض أو البحر، وأنّ الذهب الذي لا يد له، يصبح غنيمة لأول قلب يجرؤ على الحلم.

وكان البحر يومها يشبه شيخًا عجوزًا يبتسم بخبث ، كأنه يعلم أننا نسير إلى مصير لا إلى كنز.

سألتني صديقتي ، وهي تضم معطفها الأسود إلى جسدها المرتجف من برد لندن :

إلى أين من هنا يا زميلي ؟

نظرتُ إلى الضباب المتدلي فوق نهر التيمز، وقلت ببطء :

إلى أين يذهب الباحث عن الحقيقة إلا إلى غرفة التجارة البحرية ؟

إلى ذلك المبنى الذي علّقت بريطانيا على جدرانه صور رجال البحر الذين صنعوا مجدها، يوم كانت سفنها تعود من أقاصي الأرض محمّلة بالحرير والعاج والتوابل والذهب... وبالدم أحيانًا.

ابتسمت صديقتي ابتسامة ساخرة وقالت :

أتحسب أن حراس ذلك المبنى سيفتحون أبوابه لشبحين جاءا من القرن العشرين؟

إنها قلعة ورشيب يا عزيزي... المكان الذي تحفظ فيه إنجلترا أسرارها البحرية، الحربية منها والتجارية.

قلت وأنا أشعل سيجارتي :

التجربة وحدها ستجيب. ثم ألم ينصحنا حاكم ميناء لندن نفسه بزيارة القلعة ؟

لا بد أن وراء الأمر شيئًا أخطر من مجرد صورة لرجل ميت منذ قرون.

سكتُّ لحظة، ثم أضفت :

أظن أن حاكم الميناء يخشى أمرًا واحدًا... أن يكون القضاء البريطاني قد شنق الرجل الخطأ.

تأملتني صديقتي طويلًا ، وفي عينيها شيء بين الخوف والدهشة.

قلت : ربما وقف في قفص الاتهام رجل بريء يحمل اسمًا ملعونًا... وربما كانت صورة الرجل وحدها قادرة على فضح الحقيقة.

⊥

دخلنا قلعة ورشيب بسهولة أثارت الريبة في نفسي. كنت أتوقع أسئلة طويلة ووجوهًا متجهمة، لكننا وجدنا سيدة وقورة تستقبلنا بهدوء إنجليزي بارد.

كانت في الخمسين من عمرها تقريبًا ، طويلة القامة ، يحيط الشيب بشعرها الذهبي كإطار فضيّ لوجه يحمل وقار التاريخ.

وحين علمت بسبب زيارتنا ، قادتنا في صمت عبر ممرات طويلة تفوح منها رائحة الخشب القديم والكتب العتيقة.

وصلنا إلى القاعة الكبرى.

يا الله...

مئات الصور كانت معلقة على الجدران الداكنة، في إطارات سوداء ثقيلة، كأن أصحابها ما زالوا يراقبون البحر من خلف الموت. وجوه قاسية، عيون زرقاء باردة، لحى بيضاء، وصدور تعلوها الأوسمة.

قلت للسيدة : أين صورة السيد وليم كيد يا سيدتي ؟

ابتسمت ابتسامة غامضة وقالت : قبل ذلك... اسمحا لي أن أعرّفكما بنفسي .أنا الليدي وارين دريك... أمينة قلعة ورشيب.

توقفت الكلمات في حلقي.

قلت مذهولًا : دريك ؟

أيعني هذا أن بينك وبين الأميرال العظيم السير فرانسيس دريك صلة قرابة ؟

أجابت بهدوء يحمل فخرًا قديمًا : السير فرانسيس دريك هو جدي الأكبر .ومنذ خمسة قرون تتوارث عائلتنا أمانة هذه القلعة... قلعة أسرار البحرية البريطانية.

تمتمت صديقتي بإعجاب :

يبدو أن التاريخ لا يموت في هذه البلاد... بل يتوارثونه كما يتوارثون المجوهرات.

لكن الليدي دريك لم تبتسم. بل أشارت إلى الجدار الأيمن وقالت:

انظرا جيدًا... ألا يلفت انتباهكما شيء هناك ؟

نظرت.

كان بين الصور مكان فارغ. فراغٌ مستطيل يشبه قبرًا منزوع الشاهد.

قلت : كان هنا إطار صورة.

أومأت برأسها.

نعم... كانت هنا صورة السيد وليم كيد.

ساد الصمت.

ثم قالت بصوت خافت : صدر أمر قضائي بإزالتها بعد أن ثبتت عليه تهمة القرصنة.

رفعت صديقتي حاجبها وقالت بسرعة : لكنك قلتِ ذلك وكأنك غير مقتنعة بالحكم.

تنهدت الليدي دريك ، ثم اقتربت من الفراغ كأنها تقف أمام قبر حبيب.

وقالت : لأنني لا أؤمن أن الرجل الذي أُعدم شنقًا كان قرصانًا.

كان صوتها يزداد عمقًا كلما تحدثت، حتى خُيّل إليّ أن جدران القلعة نفسها تنصت إليها.

وأضافت :

جدي الأكبر السير فرانسيس دريك وُجهت إليه التهمة نفسها يومًا ، ثم اكتشفت الملكة إليزابيث الأولى الحقيقة ، فمنحته لقب النبالة بدل حبل المشنقة.

وسيأتي يوم يكتشف فيه القضاء الإنجليزي أنه أخطأ خطأً أفدح مع وليم كيد.

قلت بسرعة : وأين الصورة الآن ؟

أجابت : في منزلي بضاحية وارويك دريف. ويسعدني أن تستضيفكما الليلة... فهناك فقط أستطيع أن أحكي لكما القصة الحقيقية للرجل الذي ظلمته الإمبراطورية.

⊥

وفي تلك الليلة...

جلسنا في قاعة دافئة تتراقص فيها ألسنة النار داخل المدفأة الحجرية.

وكانت صورة وليم كيد معلقة فوق الموقد. تأملت الرجل طويلًا.

لم أرَ في ملامحه قسوة القراصنة.

كانت عيناه تشبهان عيني رجل أنهكه التفكير لا القتل ، ورأيت في قسمات وجهه شيئًا من حزن البحارة الذين عاشوا أكثر مما ينبغي.

قالت الليدي دريك وهي تشير إلى اللوحة :

هذا هو وليم كيد... الرجل الذي صدّق قضاته أنه قرصان.

ثم جلست قبالتنا وقالت :

لكنكم لن تفهموا سرّ هذه القضية حتى تعرفوا طبيعة المجتمع الذي عاش فيه.

قليلًا، ثم تابعت: كان بريطانيًا، نعم... لكنه قضى حياته كلها تقريبًا في نيويورك، حين كانت مستعمرة بريطانية. وكان من كبار ملاك السفن التجارية، متزوجًا من سيدة تنتمي إلى عائلة بحرية عريقة، يعيش حياة مرفهة، وله طفلان.

وأضافت بصوت متأمل :

لم يكن رجلًا جائعًا إلى الذهب... وهذه أول نقطة تجعلني أشك في تهمة القرصنة.

ثم بدأت تحكي...

في عام 1698 جاء وليم كيد إلى لندن لعقد صفقة تجارية. وفي قلعة ورشيب نفسها، تعرّف إلى رجل سياسي يدعى ليفنغستون، أحد رجال حزب المحافظين.

كان ذلك الرجل لبقًا، خطير الذكاء، يتحدث كما يتحدث الثعالب حين ترتدي ثياب النبلاء.

وفي نهاية لقائهما قال له : يسعدني يا كابتن كيد أن تزورني غدًا... لدي مشروع أظنك سترحب به.

سأله كيد — :مشروع تجاري ؟

ابتسم ليفنغستون.

بل مشروع إمبراطورية.

⊥

قالت الليدي دريك وهي تحتسي الشاي :

لم يكن كيد يدرك يومها أنه يسير بقدميه نحو الفخ.

ثم استطردت :

حين زار كيد منزل ليفنغستون لم يجد أحدًا من رجال السياسة أو الحرب الذين قيل إنهم سيحضرون الاجتماع.

كان وحده.

وهنا بدأت اللعبة.

قال له ليفنغستون : أنت تعلم حجم الخسائر التي تسببها سفن القراصنة لتجارتنا البريطانية.

أجاب كيد : نعم... البحر صار غابة، والأقوى فيها هو الأكثر وحشية.

قال الرجل السياسي : لذلك قررت الحكومة إنشاء قوة بحرية سرية تطارد القراصنة في الأطلسي والمحيط الهندي.

ثم اقترب منه وأضاف : وقد اختارك الملك بنفسه.

هنا تغيّر كل شيء داخل نفس وليم كيد.

كان الرجل ابنًا مخلصًا للإمبراطورية. ومن أخطر ما يصيب الإنسان أن تُداعب السلطة داخله وهم البطولة.

قالت الليدي دريك : أحيانًا لا يسقط الإنسان بسبب طمعه... بل بسبب رغبته في أن يكون مهمًا.

ثم أضافت بحزن : وذلك ما حدث لكيد.

⊥

تسلّم وليم كيد السفينة الشهيرة **جالي المغامرة**. كانت تحفة بحرية مذهلة. أربعون مدفعًا. خمسون بحارًا من رجاله الأوفياء. ومؤن تكفي لعبور المحيطات.

وحين وقف على سطحها لأول مرة، شعر أن البحر نفسه صار مملكته.

قال حاكم نيويورك لورد بلمونت : صاحب الجلالة ينتظر منك الكثير يا كابتن كيد.

لكن كيد، رغم حماسه، كان قلقًا.

قال : أريد عقدًا واضحًا يحدد حقوقي وحقوق رجالي... فالسياسة يا سيدي أخطر من العواصف.

فضحك بلمونت وقال :لا تقلق... لديك رسالة ملكية مختومة.

وكانت تلك الرسالة أخطر ورقة حملها رجل في حياته. لقد منحت كيد سلطة مطاردة القراصنة ومحاكمتهم وحتى إعدامهم.

أي إنسان يتحول حين يُمنح حق الحياة والموت.

وهنا بدأ البحر يغيّر روح وليم كيد ببطء.

فالإنسان، كما قال المتنبي :

**وَظُلمُ ذَوي القُربى أَشَدُّ مَضاضَةً**

**عَلى المَرءِ مِن وَقعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ**

⊥

أبحرت جالي المغامرة نحو المحيط الهندي.

في البداية، وصلت الأخبار إلى لندن رائعة ومبشرة.

حقق كيد انتصارات مذهلة ضد القراصنة ، وفرحت به الأميرالية البريطانية.

ثم... انقطعت أخباره.

وذات يوم بدأت الشائعات تتكاثر كالغربان.

قيل إنه قُتل. وقيل إنه تمرّد .وقيل إن ضباطًا بريطانيين أهانوه فثار عليهم.

ثم جاءت الإشاعة الكبرى :

أن وليم كيد أنزل الراية البريطانية... ورفع راية القراصنة السوداء.

صرخت صديقتي : وهل فعلها حقًا ؟

أجابت الليدي دريك بهدوء :

ذلك هو السؤال الذي لم يستطع التاريخ الإجابة عنه.

ثم مالت نحونا وقالت :

وربما كان الرجل الذي صار قرصانًا... ليس وليم كيد أصلًا.

شعرت بقشعريرة تسري في ظهري.

أما صديقتي ، فلم يكن يشغلها شيء من هذا كله.

قالت وهي تضحك :

كل هذه الفلسفة لا تعنيني... نحن جئنا من أجل الكنز.

ثم أشارت إليّ بإصبعها وقالت : وتذكر جيدًا... النصف لي.

ضحكت رغم توتري وقلت : وهل شككتِ يومًا في وفائي بالعهود ؟

لكن الحقيقة التي لم أقلها لها... أنني بدأت أخشى الكنز نفسه. فالذهب الذي يدفن معه التاريخ أسراره... لا يترك من يقترب منه سالمًا.

وكان داخلي صوت خافت يهمس :

بعض الكنوز لا تُكتشف... بل تبتلع مكتشفيها.

ومع ذلك...

لم يكن يفصلنا عن السر الأخير، وعن المكان المحتمل للكنز، سوى جلسة أخيرة مع الليدي وارين دريك. جلسة ربما تغيّر مصيرنا إلى الأبد.

# وليم كيد... التاجر الذي ابتلعته الظلال

في الأزمنة التي كانت فيها البحار إمبراطورياتٍ سائلة ، وكانت الأشرعة البيضاء تُشبه أجنحة القدر وهي تمخر عباب الأطلسي بين لندن ونيويورك، لمع اسم رجلٍ حسبه الناس مثالاً للنبل الإنجليزي الصارم، ووجهاً من وجوه الشرف البحري الذي لا يتزعزع.

كان ذلك الرجل هو السيد وليم كيد.

تاجرٌ مرموق ، ومالكُ سفنٍ ضخمة تنقل الحرير والتوابل والأخشاب والذهب بين العالم القديم والعالم الجديد ، وعضوٌ محترم في الغرفة التجارية البحرية في لندن ونيويورك، وصديقٌ مقرب من الجنرال بلمونت ، حاكم نيويورك ، بل ورجلٌ أوكلت إليه التاج البريطاني مهمةً لا يُعهد بها إلا لمن ثبتت أمانته وصفا معدنه.

فكيف انقلب هذا الرجل - في رواية الناس - إلى قرصانٍ دمويّ يقطع الطرق البحرية ، ويحرق السفن ، ويغرق الرجال في لجج المحيط ؟ أيعقل أن يتحول القلب من النور إلى الظلام في أشهر معدودات؟

أم أن البحر، ذلك الوحش الأزرق القديم ، كان يخفي سراً أكبر من عقول البشر ؟

⊥

كانت لندن في شتاء عام 1701 غارقةً في ضبابٍ كثيف ، حتى بدا نهر التايمز كأنه شريطٌ من الرصاص الأسود يمتد تحت سماءٍ حزينة. وكانت النوافذ المرتجفة بمطر الشتاء تعكس وجوهاً شاحبة تخشى الكلام أكثر مما تخشى الموت.

وفي قاعةٍ قديمة داخل دار ليدي دريك، أمينة قلعة ورشيب، الحافظة لأسرار البحرية البريطانية، جلسنا نستمع إلى المرأة العجوز وهي تتأمل النار المشتعلة في الموقد بعينين غائرتين، كأنهما شهدتا من مآسي البشر ما يكفي لإطفاء دهشة العمر.

قالت بصوتٍ هادئٍ تتخلله مرارة السنين :

تلك يا سادتي هي المعضلة... الإنسان لا ينقلب من أقصى النقاء إلى أقصى الإثم بين ليلةٍ وضحاها. لا يصبح الرجل الهادئ الرحيم، فجأة، سفاحاً يعشق الدماء.

ثم سكتت قليلاً ، وأخذت تداعب خاتماً فضياً في إصبعها ، قبل أن تضيف : ولهذا، منذ البداية، لم أقتنع بأن وليم كيد كان قرصاناً.

قلت متعجباً :أتظنين إذن أن الأميرالية البريطانية لفقت له التهمة؟

رفعت رأسها ببطء، وقالت : لندع الظنون جانباً، ولننظر إلى الوقائع. فالوقائع وحدها هي التي لا تخاف الليل.

ثم اقتربت من النافذة ، وراحت تنظر إلى المطر المنهمر فوق لندن ، وقالت بصوتٍ خافت :

لو كان وليم كيد مذنباً حقاً... فلماذا عاد إلى لندن ؟ لماذا عاد وهو يعلم أن حبل المشنقة ينتظره في الرصيف السابع من الميناء ؟

ساد الصمت.

وكان السؤال كطعنةٍ باردة في القلب.

قال أحد الجالسين : نعم... لماذا يعود المجرم إلى حتفه بإرادته ؟

التفتت ليدي دريك نحونا ، وفي عينيها بريق غريب ، ثم قالت :

لأنني أؤمن... أن الرجل الذي عاد إلى لندن لم يكن يعلم شيئاً عن الجرائم التي ارتُكبت باسمه.

ثم انخفض صوتها أكثر :

وربما... كان هناك رجلٌ آخر.

ارتجفت القاعة كلها عند تلك العبارة.

رجل آخر ؟

نعم... رجل انتحل اسم وليم كيد، واستولى على سفينته ، وجعل من الاسم الشريف ستاراً للقرصنة والنهب.

⊥

ويوم مثل وليم كيد أمام محققي الأميرالية البريطانية ، لم يدخل كالمجرمين المنكسرين، بل دخل كرجلٍ جُرح كبرياؤه.

كان وجهه شاحباً من السفر الطويل، لكن عينيه بقيتا محتفظتين بذلك البريق الذي لا يوجد إلا في عيون الرجال الذين اعتادوا قيادة العواصف.

جلس أمام الأدميرال وارين سويرز، وقال بحدة :

أهذا تحقيق... أم إهانة ؟

قال الأدميرال ببرود : نريد الحقيقة يا كابتن كيد.

فضرب كيد الطاولة بعنف : الحقيقة ؟! الحقيقة أنني خرجت بأمرٍ مباشر من الملك وليم الثالث لمحاربة القراصنة، لا لأصبح واحداً منهم!

ثم انحنى قليلاً للأمام ، وصوته يرتجف بالغضب :

كنت أرسل إليكم تقارير منتظمة بكل ما حدث لي... فكيف تزعمون أنكم لم تتلقوا رسالة واحدة ؟

نظر المحققون إلى بعضهم بعضاً.

وقال أحدهم ببرودٍ قاتل : لأننا بالفعل... لم نتلق شيئاً.

هنا شعر كيد لأول مرة بأن شيئاً ضخماً يتحرك خلف الستار. شيء أكبر من مجرد تهمة. شيء يشبه المؤامرة.

وفي داخله بدأ صوتٌ خافت يهمس :

البحر لا يخون الرجال يا كيد... البشر وحدهم يفعلون.

ثم بدأ يروي ما حدث.

كيف أبحر بالسفينة جالي المغامرة نحو المحيط الهندي، وكيف نجح في مطاردة سفن القراصنة ، وتحرير الأسرى ، واستعادة بضائعٍ منهوبة.

حتى جاء اليوم المشؤوم قرب ميناء طاليكوت.

قال كيد :

أوقفتني سفينة حربية بريطانية يقودها الكابتن أندرو ماسون... ومنذ اللحظة الأولى أدركت أن شيئاً ليس طبيعياً.

ماذا طلب منك ؟

طلب نصف مدافعي... ونصف رجالي.

ساد الذهول.

قال المحقق : وهل استجاب رجال البحرية البريطانية لهذا الجنون ؟

ضحك كيد ضحكةً مُرة وقال : في البحر ، يا سيدي ، الأوامر تُنفذ ولو كانت طريقاً إلى الجحيم.

ثم أردف : جردوني من قوتي... تركوا لي سفينةً مشلولة ، ورجالاً منهكين ، ثم مضوا كأن شيئاً لم يكن.

وسكت قليلاً.

لكن عينيه كانتا تقولان ما لم يقله لسانه : لقد تُركت عمداً للفريسة.

⊥

وفي ميناء كاروان الهندي ، وقعت الكارثة.

قال كيد : كنت أتناول العشاء في بيت القنصل البريطاني حين دخل عليه أحد رجاله وهمس في أذنه.

ثم ارتجف صوت كيد وهو يتذكر :

تغير وجه القنصل فجأة... وعرفت أن مصيبةً وقعت.

ماذا قال لك ؟

قال إن سفينتي اختفت.

اختفت ؟

نعم... اختفت كما تختفي الأرواح في الليل.

ثم نهض كيد واقفاً داخل قاعة التحقيق ، وصاح :

أقسم بالله أنني لم أفهم شيئاً ! كانت السفينة تحت الحراسة... ورجالي فوقها... فكيف سُرقت ؟!

ثم وضع يديه فوق رأسه، وتمتم كأنما يحدث نفسه :

منذ تلك اللحظة شعرت أنني أسير داخل ضباب... كلما حاولت الإمساك بالحقيقة تلاشت من بين أصابعي.

⊥

كان الليل ينهش عقل وليم كيد.

وفي غرفته بلندن ، بعد عودته ، كان يجلس وحيداً أمام شمعةٍ مرتعشة ، يسمع في داخله أصوات البحر.

كان يحدث نفسه قائلاً : أيمكن أن يصبح الإنسان متهماً فقط لأن اسمه استُخدم سلاحاً ضده ؟

ثم يضحك بمرارة : أيها البحر... كم من الأبرياء ابتلعت دون شاهد ؟

وكان يشعر، للمرة الأولى، أن الشرف وحده لا يكفي لينقذ الإنسان. فالعالم لا يحاكم الحقيقة دائماً... بل يحاكم الرواية الأقوى.

⊥

قالت ليدي دريك وهي تنظر إلى ألسنة النار : والأعجب من ذلك كله... أن جميع بحارة السفينة أدفيس نفوا أن يكون كيد قد مارس القرصنة.

قلت : إذن لماذا أُعدم ؟

تنهدت العجوز طويلاً ، وقالت : لأن السياسة يا ولدي... حين تجوع، تأكل العدالة.

ثم استطردت : كان الملك وليم الثالث حائراً. فلا الأدلة تُدين الرجل يقيناً، ولا هي تبرئه تماماً.

لكن المفاجأة جاءت من مجلس العموم.

وهنا لمع بريقٌ غريب في عينيها.

وقف أحد النواب ذات يوم ، ولوّح برسالة وصلته من الجنرال بلمونت ، حاكم نيويورك ، ومعها تقرير من حاكم جزيرة باربادوس.

قال النواب في ضجة : وماذا فيها ؟

فأجاب : فيها ما يثبت أن السفينة جالي المغامرة أغارت على باربادوس بقيادة رجل يدعى الكابتن كيد...

ثم صرخ أحدهم : إذن التهمة صحيحة !

لكن النائب ضرب الطاولة بقبضته وصاح :

كلا! لأن تلك الغارة وقعت في الوقت نفسه الذي كان فيه وليم كيد خاضعاً للإقامة الجبرية في لندن!

وساد الصمت. صمتٌ ثقيل كالقبر.

ثم قال النائب : أيها السادة... هناك رجل آخر يحمل اسم وليم كيد.

ومع ذلك... شنقوا وليم كيد.

⊥

وفي صباحٍ رمادي عند الرصيف السابع بميناء لندن، وقف الرجل الذي دوّخ المحيطات ينظر إلى السماء بصمت.

كانت الأمواج تضرب الخشب تحت قدميه ، وكأن البحر نفسه يحتج على الحكم.

أما هو، فلم يصرخ. لم يطلب الرحمة. بل تمتم قبل موته بكلماتٍ لم ينسها من حضروا المشهد :

قد يُهزم الإنسان أمام الأكاذيب... لكن الحقيقة لا تموت.

ثم التف الحبل حول عنقه. وتأرجح الجسد فوق الميناء.

لكن السر... ظل معلقاً معه.

أما البحر...

فقد ظل، حتى اليوم، يحتفظ بالحقيقة في أعماقه السوداء.

# اللوحة الغائبة في قلعة ورشيب
# البحث عن كابتن كيد بين ظلال التاريخ وأشباح البحر

وما زلنا نبحث عن كنز القرصان كابتن كيد؛ ذلك الكنز الذي ظل يلوح في مخيلتي كما تلوح جزيرة بعيدة في أفق ضبابي لا تصل إليه السفن إلا بعد أن تفقد يقينها باليابسة. كان الرجل، أو طيف الرجل، قد وعدني بنصفه ، ووعد القراصنة كما يقول المؤرخون أخطر من تهديداتهم ، لأنه يزرع في النفس أملاً لا يموت، ويجعل المرء أسيراً لاحتمال واحد من بين ألف احتمال.

وكان كابتن كيد يكرر بثقة الواثق:

إن القانون الدولي يقرر أن كنوز القراصنة تبقى ملكاً لصاحبها ما دامت لم تُكتشف بعد.

ثم يبتسم ابتسامة غامضة تشبه انكسار الضوء على صفحة الماء ساعة الغروب، ويضيف :

وما دام الكنز نائماً تحت التراب أو في جوف البحر ، فإنه ما يزال ينتظرني... أو ينتظر من يبحث عنه باسمي.

سرت إلى جواري صديقتي وسط ضباب لندن الكثيف، وكان الصباح ينساب فوق الأرصفة الحجرية بارداً ورطباً، بينما كانت أصوات النوارس ترتفع من جهة النهر كأنها رسائل قديمة فقد أصحابها منذ قرون.

توقفت فجأة وسألتني : إلى أين من هنا يا صديقي ؟

رفعت بصري نحو السماء الرمادية التي بدت وكأنها سقف حجري منخفض، ثم قلت : إلى أين يمكن أن نذهب غير مبنى غرفة التجارة البحرية؟ هناك، في قلعة ورشيب، تحتفظ بريطانيا بصور رجال البحر الذين صنعوا مجدها يوم كانت سفنها تذهب إلى أقاصي الأرض وتعود محملة بالتوابل والحرير والعاج والذهب وأخبار الأمم البعيدة.

صمتُّ قليلاً ثم أضفت : هناك ربما نجد صورة وليم كيد.

نظرت إليّ في شيء من الريبة وقالت : أتظن أن حراس ذلك المبنى سيسمحون لشبحين قادمين من القرن العشرين بالدخول إلى قلعة تحتفظ فيها بريطانيا بأسرارها البحرية؟ إن تلك القلعة ليست متحفاً عادياً، بل ذاكرة إمبراطورية كاملة؛ فيها أسرار التجارة والحرب، والهزائم التي أُخفيت، والانتصارات التي كُتبت بماء الذهب.

ابتسمت وقلت : التجربة وحدها ستجيب عن هذا السؤال.

ثم تابعت وأنا أستعيد كلمات حاكم ميناء لندن :

ثم إن حاكم الميناء نفسه هو الذي نصحنا بالذهاب إلى هناك ومعاينة صورة السيد وليم كيد.

هزت رأسها متفكرة.

أما أنا فكنت أشعر أن الأمر تجاوز حدود الفضول التاريخي. كان هناك شيء يزعجني في القصة كلها، شيء يشبه حصاة صغيرة داخل الحذاء لا تؤلم كثيراً لكنها تمنعك من المشي مطمئناً.

قلت ببطء : أظن أن حاكم الميناء نفسه يشك في القضية كلها.

نظرت إليّ باستغراب.

فقلت : ربما يخشى أن تكون بريطانيا قد أخطأت في التعرف إلى الرجل الذي وقف في قفص الاتهام قبل ثلاثة قرون. وربما أخطأ القضاء الإنجليزي حين أصدر حكم الإعدام دون أن يكون واثقاً تمام اليقين من أن المتهم هو حقاً صاحب الجرائم المنسوبة إليه.

سكت قليلاً.

ثم قلت : تخيلي الأمر... رجل يقف أمام قضاته محاطاً بالجنود، والناس تهتف مطالبة بالقصاص، بينما هو يعرف في أعماقه أنه بريء، أو يعرف على الأقل أنه ليس الوحش الذي صنعته الروايات.

أخفضت رأسي وأنا أتمتم : كم من البشر ماتوا لأن التاريخ كان مستعجلاً؟

لم تجب. كان الصمت أبلغ من أي كلام.

ثم قلت : على أي حال، سنرى الصورة. لعل الوجوه تعرف من الأسرار أكثر مما تعرفه الوثائق.

## ⊥

وكان من العجيب أننا لم نجد أدنى صعوبة في دخول المبنى.

ارتفعت قلعة ورشيب أمامنا كأنها سفينة حجرية ضخمة رست على ضفاف الزمن نفسه. جدرانها السمراء تحمل آثار المطر والملح والدخان، ونوافذها العالية تشبه عيون بحارة عجائز رأوا من الحروب والعواصف أكثر مما ينبغي لإنسان أن يرى.

استقبلتنا عند المدخل سيدة وقورة ذات ملامح هادئة وابتسامة خافتة تشبه ابتسامات الصور الفيكتورية القديمة.

وحين علمت بسبب زيارتنا، أومأت برأسها في صمت، ثم طلبت منا أن نتبعها.

سرنا خلفها في ممرات طويلة يكسوها الخشب الداكن، وكانت خطواتنا تتردد فوق الأرضية كأن القلعة تستمع إلينا.

شعرت فجأة بأن المكان ليس مجرد مبنى. كان أشبه بعقل هائل يحتفظ بذاكرته منذ قرون. كل جدار هنا يتذكر. كل نافذة رأت سفينة تبحر ولا تعود. كل درجة في السلم سمعت أخبار موت بحار أو ولادة إمبراطورية.

وصلنا إلى القاعة المنشودة.

توقفت السيدة وفتحت الباب. دخلنا. وكانت القاعة أشبه بمحيط من الوجوه. صور لا تنتهي. قباطنة وأمراء بحر ومستكشفون وأدميرالات. وجوه صارمة. وجوه متعبة. وجوه تعرف معنى الوحدة الطويلة في عرض البحر.

كانت الإطارات الداكنة مصطفة بعناية مهيبة، كأن أصحابها ما زالوا يقفون في استعراض عسكري أبدي.

قلت : أين صورة السيد وليم كيد يا سيدتي ؟

التفتت إلينا المرأة وقالت بهدوء : قبل أن أجيب، اسمحا لي أن أقدم نفسي.

ثم انحنت قليلاً وأضافت : أنا الليدي وارين دريك، الأمينة العامة لقلعة ورشيب.

توقفت الكلمات في حلقي.

وقلت بدهشة : دريك؟

ابتسمت.

قلت :

هل بينك وبين الأميرال العظيم السير فرانسيس دريك صلة قرابة؟

أضاء شيء خفيف في عينيها.

وقالت : السير فرانسيس دريك هو جدي الأكبر.

ثم تابعت بفخر هادئ: ومنذ قرون طويلة تتوارث أسرتنا مهمة الإشراف على هذه القلعة وحفظ أرشيف البحرية البريطانية وذاكرتها.

شعرت للحظة أن التاريخ لا يموت فعلاً. إنه يغير أسماءه فقط. الأجداد يتحولون إلى صور. والأحفاد يتحولون إلى حرّاس للصور.

قالت صديقتي :

لقد أخبرك صديقي بسبب مجيئنا. نحن نريد رؤية صورة السيد وليم كيد والتأكد من أنه هو نفسه الرجل الذي أعدم شنقاً عند الرصيف السابع في ميناء لندن.

ثم نظرت حولها وأضافت : لكن أين صورته وسط هذا العدد الهائل من رجال البحر الإنجليز ؟

ابتسمت الليدي دريك ابتسامة غامضة وقالت : انظرا إلى الجدار الأيمن.

التفتنا. كان هناك فراغ واضح في وسط الصور. مكان خالٍ بحجم إطار كبير.

قلت : بالطبع... هناك صورة مفقودة.

هزت رأسها.

وقالت : نعم.

ثم أضافت بصوت خافت : كانت صورة السيد وليم كيد معلقة هناك.

ساد الصمت.

وتابعت : قبل سنوات طويلة وصلني أمر قضائي يقضي بإزالتها من القاعة بعد تثبيت تهمة القرصنة عليه رسمياً.

ونظرت إلى المكان الفارغ وقالت : نفذت الأمر.

ثم أضافت بصوت أكثر انخفاضاً : لكنني فعلت ذلك آسفة.

قلت بسرعة : آسفة ؟

رفعت عينيها نحوي.

قلت: معنى ذلك أنك لا تؤمنين بالتهمة التي أُعدم بسببها ؟

بقيت صامتة لحظات.

كانت تنظر إلى الفراغ في الجدار لا إلينا. وكأنها ترى الصورة الغائبة ما تزال معلقة هناك.

ثم قالت : نعم. لا أصدق أن الرجل الذي أعدم شنقاً كان هو القرصان الذي تحدثت عنه الروايات.

ساد الصمت في القاعة. حتى الساعة القديمة المعلقة فوق الباب بدت وكأنها توقفت عن الحركة.

قالت : تذكرا أن جدي الأكبر السير فرانسيس دريك اتُهم بالقرصنة أيضاً. الإسبان كانوا يسمونه قرصاناً. أما الإنجليز فكانوا يسمونه بطلاً قومياً.

ثم ابتسمت ابتسامة حزينة وأضافت : التاريخ لا يغير الأحداث، بل يغير أسماءها فقط.

اقتربت من الجدار الخالي. ومدت أصابعها فوق الفراغ كأنها تلمس إطاراً غير مرئي.

وقالت : اليوم الذي يكون فيه الرجل عدواً يسمى قرصاناً. واليوم الذي ينتصر فيه يسمى أميرالاً.

ثم التفتت إلينا فجأة.

وقالت : هل سألتما نفسيكما يوماً من الذي يكتب الحقيقة؟

لم أجب. لأنني لم أكن أملك جواباً.

قالت : المحاكم تصدر الأحكام. أما التاريخ فيصدر الروايات. وفي أحيان كثيرة لا يتفق الاثنان.

كانت كلماتها تتسلل إلى أعماقي ببطء. وأدركت أنني لم أعد أبحث عن كنز مدفون في جزيرة مجهولة. كنت أبحث عن شيء آخر. عن رجل ضاع بين صفحتين من كتاب. عن اسم ابتلعته السياسة. عن إنسان وقف وحيداً أمام حبل المشنقة بينما كانت الإمبراطورية كلها بحاجة إلى مذنب.

قالت الليدي دريك : سيأتي يوم يعترف فيه القضاء الإنجليزي بأنه أخطأ في حق واحد من أنبل رجال البحرية البريطانية.

ثم نظرت إلى الفراغ الأخير في الجدار وأضافت : وحتى يأتي ذلك اليوم، ستظل صورته معلقة هنا... لا على الجدار... بل في ضمير من عرفوه.

خرجنا من القلعة بعد ساعات. وكان الضباب قد ازداد كثافة.

أما أنا فالتفت نحو النوافذ العالية للمبنى للمرة الأخيرة.

وللحظة قصيرة خُيل إلي أنني رأيت رجلاً يرتدي معطف بحر قديماً يقف خلف الزجاج ويبتسم.

لم أعرف إن كان وليم كيد. أم التاريخ نفسه.

لكنني كنت متأكداً من شيء واحد : بعض الكنوز لا تُدفن في الجزر المهجورة ولا في كهوف القراصنة. بعض الكنوز تُدفن في الحقيقة نفسها.

وتنتظر، بصبر البحر وطول ذاكرة الزمن، من يعثر عليها.

اين ألقيت بالصورة يا ليدي وارين دريك ؟

قالت : أخدتها إلى داري ف ضاحية وارويك دريف ، و انه ليسعدني ان استضيفكما و اسمعكما القصة الحقيقية لهدا الرجل المظوم

# اللوحة التي اتُّهمت بالإبحار
# حكاية السيد وليم كيد بين المجد والقرصنة

وها نحن نجلس في القاعة الدافئة في دار السيدة ليدي دريك ، حيث كانت النار تتهادى في المدفأة الحجرية كأنها تعزف موسيقى خافتة من زمن بعيد، بينما كانت الريح الشتوية تداعب زجاج النوافذ العالية في همس يشبه أصوات البحارة العائدين من المحيطات البعيدة.

وكان أمامنا ، فوق الجدار المكسو بخشب البلوط الداكن ، إطار مذهّب بالغ الأناقة يحتضن لوحة لرجل يقف في ثبات الواثقين ، مرتدياً معطفاً بحرياً فاخراً، وقد استقرت إحدى يديه على مقبض سيف، بينما بدت في عينيه تلك النظرة التي تجمع بين الحذر والكبرياء، بين حلم المغامرة وعبء المسؤولية.

وقفت ليدي دريك أمام اللوحة لحظات طويلة ، ثم قالت وهي تشير إليها بأصابع هادئة :

هذا هو السيد وليم كيد.

توقفت قليلاً ، ثم أضافت بصوت انخفض حتى بدا كأنه يخرج من أعماق القرن السابع عشر نفسه:

غير أن ثلاثة قضاة في لندن أقسموا تحت قبعاتهم السوداء أنه ليس السيد وليم كيد، بل القرصان وليم كيد.

ساد الصمت.

كان الحطب يتشقق في المدفأة كأن النار نفسها تفكر في تلك العبارة.

تابعت ليدي دريك :

ولن تستطيعوا فهم السر الذي لفّ حياة هذا الرجل ، ولن تدركوا كيف يمكن لإنسان أن ينتقل في أعين الناس من مقام التاجر المحترم إلى مقام المجرم المطارد ، إلا إذا عرفتم المجتمع الذي عاش فيه، والسمعة التي كان يحملها بين الناس ، والمكانة التي بلغها قبل أن تبتلعه العاصفة.

اقترب أحد الحاضرين من اللوحة وسأل :إذن فهو بريطاني الأصل؟

أجابت : نعم ، بريطاني بلا شك، لكنه قضى معظم حياته في نيويورك، يوم كانت المدينة لا تزال مستعمرة صغيرة تحلم بأن تصبح يوماً عاصمة لعالم جديد.

ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت : كانت نيويورك آنذاك مدينة مختلفة تماماً ؛ ميناءً واسعاً يختلط فيه صراخ البحارة بلغات الأرض كلها ، وتتصاعد من أرصفته روائح القطران والخشب الرطب والتوابل القادمة من الشرق البعيد.

وسأل أحدنا : وما كانت مهنته ؟ هل كانت له صلة بالبحر ؟

ابتسمت ليدي دريك، وكأن السؤال كان متوقعاً منذ البداية.

بل كان البحر عالمه كله. كان من كبار أصحاب السفن التجارية، وواحداً من الرجال الذين بنت المستعمرات الجديدة ثرواتها على أكتافهم.

ثم أضافت : تزوج من سيدة تنتمي إلى أسرة عريقة في التجارة البحرية، أسرة عرفت الموانئ قبل أن تعرف الحدائق، وعرفت اتجاهات الرياح قبل أن تعرف اتجاهات السياسة.

رزق منها طفلين ، وعاش سنوات طويلة في رخاء وطمأنينة. كان منزله من البيوت التي تُضاء نوافذها حتى ساعة متأخرة من الليل لاستقبال التجار والقادة والضباط وكبار رجال المستعمرة.

كان الناس يعرفونه رجلاً كريماً، واسع الثقافة، حسن الحديث.

وكانت موائد بيته في نيويورك تجمع التجار بالقضاة، والضباط برجال الدين، والسياسيين بأصحاب السفن.

أما هو ، فكان يحب أن يقف قرب النوافذ المطلة على الميناء، يراقب الأشرعة البيضاء وهي تقترب من المدينة أو تغادرها، شاعراً دائماً أن جزءاً من روحه يرحل مع كل سفينة.

كان البحر بالنسبة إليه أكثر من مهنة. كان قدراً.

وفي عام 1698، شد الرحال إلى لندن لإتمام صفقة بحرية كبيرة. كانت لندن في ذلك الزمن مدينة تضج بالقوة والطموح. شوارعها

مزدحمة بالعربات والخيول والباعة ، وموانئها تكاد تختنق من كثرة السفن القادمة من أطراف الإمبراطورية.

وفي صباح ضبابي ، دخل وليم كيد مبنى الغرفة البحرية داخل أسوار القلعة العتيقة. كان يحمل تحت ذراعه ملفات تجارية، ولم يكن يدري أن ذلك الصباح سيغير حياته إلى الأبد.

هناك، تقدم نحوه رجل أنيق الملبس ، تتدلى من معطفه شارة رسمية صغيرة.

انحنى الرجل قليلاً وقال : الكابتن كيد، على ما أظن ؟

رفع كيد رأسه.

نعم، أنا هو.

ابتسم الرجل قائلاً :

يشرفني أن أقدم نفسي إليك. أنا السيد روبرت ليفينغستون.

بدت الدهشة على وجه كيد. فالاسم معروف في نيويورك، بل إن عائلة ليفينغستون كانت من أكثر العائلات نفوذاً في المستعمرة.

صافحه بحرارة قائلاً : يشرفني التعرف إليك يا سيدي.

وطال الحديث بين الرجلين. تحدثا عن التجارة، وعن أسعار السكر والتبغ، وعن طرق الملاحة، وعن السفن الفرنسية التي تزايد نشاطها في البحار. ثم انتقل الحديث إلى السياسة والحرب الدائرة في المستعمرات.

كان كيد يصغي باهتمام ، لكنه كان يشعر أن محاوره يقوده ببطء نحو موضوع آخر.

وفي نهاية اللقاء قال ليفينغستون : سيسعدني كثيراً يا كابتن كيد أن تشرفني بزيارتك في الدار التي أقيم بها كلما حضرت إلى لندن.

سأله كيد متعجباً : أفهم من ذلك أنك تقيم في إحدى المقاطعات الشمالية ؟

ضحك ليفينغستون ضحكة قصيرة وقال : بل أقيم مثلك تماماً في نيويورك.

ثم أضاف :

وللأسف، لم يسعفني الحظ بحضور إحدى حفلاتك الشهيرة التي يقيمها علية القوم هناك.

ابتسم كيد في حياء خفيف. كان يدرك أن شهرته الاجتماعية سبقت اسمه إلى لندن.

قال ليفينغستون : أنا هنا في زيارة قصيرة لتقديم الشكر إلى وزير الخارجية بعد صدور قرار تعييني مسؤولاً عن الشؤون الهندية في المستعمرة.

تهلل وجه كيد وقال بحماسة صادقة : اسمح لي، نيابة عن أبناء نيويورك، أن أقدم لك أحر التهاني يا سيد ليفينغستون. إن هذا لشرف تفخر به الولاية كلها.

انحنى الرجل قليلاً قائلاً : أشكرك يا كابتن كيد.

ثم تغيرت نبرة صوته فجأة. أصبحت أكثر هدوءاً، وأكثر جدية.

والآن، هل يمكنني أن آمل في زيارة منك ؟ لنقل مساء الغد مثلاً ؟

بكل سرور.

توقف ليفينغستون لحظة قبل أن يضيف : لدي مشروع أعتقد أنك سترحب بالمشاركة فيه.

رفع كيد حاجبيه. مشروع ؟

نعم.

تجاري ؟

ابتسم ليفينغستون ابتسامة غامضة.

يمكن أن نسميه مشروعاً تجارياً وسياسياً وعسكرياً في آن واحد.

ساد الصمت بينهما.

شعر كيد بشيء غريب يتحرك في داخله. ذلك الإحساس الذي يسبق العواصف البحرية.

قال ببطء : ومن تقصد بقولك المشاركة معنا ؟

أجاب الرجل : معنا... مجموعة من كبار رجال التجارة والسياسة والحرب في الإمبراطورية البريطانية.

ثم اقترب خطوة واحدة وقال بصوت منخفض : رجال يملكون النفوذ الكافي لتغيير خرائط البحار إن أرادوا.

شعر كيد بأن قلبه يخفق أسرع قليلاً.

كانت الكلمات مغرية. خطيرة. تشبه الأضواء التي تظهر للسفن ليلاً فوق الصخور.

سأل :

وما الذي يمكن لرجل مثلي أن يقدمه لكم ؟

أجاب ليفينغستون فوراً : اسمك.

ثم أضاف : وسمعتك.

صمت كيد.

في تلك اللحظة شعر بشيء يشبه الانقسام داخل روحه. صوت يقول له إن الفرص الكبرى لا تطرق الأبواب مرتين. وصوت آخر أكثر هدوءاً يسأله : ولماذا يحتاج الأقوياء إلى اسم رجل مثلي ؟

كان البحر قد علمه شيئاً واحداً : كل صفقة لا تُكشف أوراقها كاملة تخفي تحت سطحها تيارات خطيرة.

نظر إلى نافذة القاعة. كان الضباب اللندني يبتلع الأبراج البعيدة كما يبتلع البحر السفن الصغيرة.

وفكر : لدي زوجة تنتظرني في نيويورك... طفلان يركضان نحوي كلما عدت إلى المنزل... تجارة مزدهرة... واسم صنعته خلال سنوات طويلة.

ثم تساءل في داخله : فلماذا أشعر أنني أقف الآن على حافة طريق لن أستطيع العودة منه ؟

قطع ليفينغستون أفكاره قائلاً : إذن... هل أنتظرك غداً ؟

رفع كيد عينيه نحوه.

بدا له الرجل في تلك اللحظة أقل شبهاً بالسياسيين وأكثر شبهاً بالبحارة الذين يخفون الخرائط الحقيقية داخل جيوبهم.

ابتسم ابتسامة صغيرة وقال: نعم يا سيد ليفينغستون...

سوف آتي.

ولم يكن يعلم أن تلك الكلمات القليلة كانت أول خطوة في الرحلة التي ستقوده من صالونات النبلاء إلى قفص الاتهام، ومن موائد الشرفاء إلى منصة الإعدام، وأن التاريخ بعد سنوات طويلة لن يتذكره بوصفه التاجر وليم كيد...

بل بوصفه الرجل الذي ظل العالم كله يسأل عنه حتى اليوم :

هل كان حقاً قرصاناً ؟ أم كان ضحية بحر لا يعترف ببراءة أحد ؟

# حين استدعاه الملك
# الليلة التي تغيّر فيها مصير وليم كيد

واستطردت ليدي دريك قائلة، وقد بدا صوتها كأنه يخرج من وراء ستائر الزمن، حاملاً معه رائحة المرافئ القديمة وملوحة البحار البعيدة :

كان المساء قد أرخى عباءته الرمادية فوق مدينة نيويورك ، وأخذ الضباب يتسلل من النهر مثل جيش صامت يزحف نحو البيوت الحجرية والمخازن الخشبية وأعمدة الأرصفة التي اعتادت صرير الحبال واحتكاك السفن.

في تلك الليلة ، كان الكابتن وليم كيد يسير بخطوات ثابتة نحو منزل السيد لفنغستون، الرجل الذي أصبح اسمه يتردد في أروقة السلطة البريطانية بوصفه أحد العقول التي تدير المصالح الإمبراطورية في العالم الجديد.

توقف كيد أمام المنزل لحظة. كان البيت مضاءً على غير عادة بكمية كبيرة من الشموع، لكن الغريب أن الصمت كان يخيّم عليه. لا ضحكات رجال السياسة. لا أصوات الكؤوس. لا جدالات التجار الذين اعتادوا الاجتماع حول الخرائط البحرية وصفقات السكر والتبغ والقطن.

رفع يده وطرق الباب.

فتح الخادم الباب في هدوء وأدخله إلى قاعة واسعة تتراقص فيها ألسنة النار داخل الموقد الحجري.

كان لفنغستون يجلس وحده. وحيداً تماماً.

نهض مرحباً به قائلاً : أهلاً بك يا كابتن كيد... لقد كنت أنتظرك.

تلفت كيد حوله متعجباً وقال : ظننت أنني سأجد هنا كبار رجال التجارة والسياسة والحرب الذين حدثتني عنهم في رسالتك.

ابتسم لفنغستون ابتسامة صغيرة وقال : كانوا هنا بالفعل... لكن الحديث الذي سأقوله لك الآن، لم أرده أن يسمعه أحد سواك.

شعر كيد بشيء من القلق.

جلس ببطء على المقعد المقابل، بينما كانت النيران تعكس ظلالاً متحركة على وجه الرجل الجالس أمامه.

قال لفنغستون بعد صمت قصير : لأنك يا عزيزي كيد من كبار رجال التجارة البحرية في نيويورك، فلا بد أنك تدرك حجم الكارثة التي تتعرض لها تجارة بريطانيا، سواء في الجزيرة الأم أو في مستعمراتها الأمريكية.

أومأ كيد برأسه قائلاً : القراصنة.

نعم... القراصنة.

ثم أضاف بصوت منخفض : إنهم يلتهمون تجارتنا كما تلتهم النار سفينة جافة في عرض البحر.

ساد الصمت لحظة.

كانت الريح تضرب زجاج النوافذ كأنها تؤكد كلماته.

قال كيد : أعرف ذلك جيداً. كثير من السفن لم تعد إلى أصحابها قط، وكثير من البحارة انتهى بهم الأمر في قاع المحيط أو في أسواق العبيد.

ثم رفع نظره إليه وأضاف : وأعتقد أن القرار الملكي الذي منحك مسؤولية الشؤون الهندية يمنحك سلطة واسعة للتحرك في المحيط الهندي.

هز لفنغستون رأسه قائلاً : الأمر أكبر من الهند يا كيد.

ثم اقترب قليلاً من الطاولة.

الخطر الحقيقي يكمن في الأطلسي أيضاً. الإمبراطورية البريطانية أصبحت تمتلك تجارة تمتد من جزر الكاريبي إلى سواحل أفريقيا والهند والصين، وكل هذا الشريان الاقتصادي ينزف كل يوم.

تأمل كيد ألسنة النار للحظات.

كان يعرف ذلك. كان البحر يتغير. في الماضي كان التاجر يبحر وهو يخشى العواصف. أما الآن فقد أصبحت العواصف أرحم من البشر.

قال : قلت: إننا نفكر. من تقصد ب نحن ؟

ابتسم لفنغستون وقال :

رجال من الحكومة... رجال من الأميرالية... ورجال يحظون بثقة التاج نفسه.

ثم توقف قليلاً قبل أن يضيف :

بل إن صاحب الجلالة الملك كان حاضراً أثناء مناقشة المشروع.

رفع كيد رأسه فجأة.

الملك ؟

نعم.

ثم نظر إليه مباشرة وقال : وقد ذُكر اسمك أثناء الاجتماع.

ساد الصمت.

شعر وليم كيد للحظة بأن الغرفة أصبحت أضيق.

هو ؟ ابن البحار الاسكتلندي الفقير؟ ذلك الشاب الذي كان ينام أحياناً فوق ألواح السفينة الباردة ويحسب النجوم ليتعلم الملاحة ؟ ذلك الرجل الذي قضى نصف حياته يطارد الربح ويهرب من الإفلاس والعواصف ؟ ذكر الملك اسمه ؟

قال بصوت خرج أقرب إلى الهمس :جلالة الملك ذكر اسمي ؟

أجاب لفنغستون : ليس هذا فحسب... بل أضاف اسمك بيده إلى قائمة المرشحين.

شعر كيد بحرارة غريبة تسري في صدره. شيء بين الفخر والخوف. فخر لأن الملك يعرفه. وخوف لأن الملوك لا يتذكرون أسماء الرجال العاديين إلا عندما تكون هناك مهمة خطيرة تنتظرهم.

قال : إنه لشرف عظيم يا سيد لفنغستون... لكن ما طبيعة هذا المشروع ؟

أخذ لفنغستون ورقة مطوية من فوق الطاولة وفتحها ببطء.

الخطة بسيطة في ظاهرها ، عظيمة في نتائجها.

ثم أكمل :

اختيار ثلاث أو أربع سفن قوية وسريعة ، يقودها رجال مشهود لهم بالمهارة والشجاعة والخبرة البحرية ، ثم إرسالها لمطاردة القراصنة في المحيطين الهندي والأطلسي.

رفع رأسه وقال:

نريد أن نحول البحر من مملكة للقراصنة إلى طريق آمن للتجارة البريطانية.

ابتسم كيد ابتسامة خفيفة.

مشروع جميل على الورق.

بل مشروع ضروري للبقاء.

ثم أضاف : وقد تم اختيارك لتكون أحد قادة تلك السفن.

ظل كيد صامتاً.

في داخله بدأت أفكار كثيرة تتصارع. هو تاجر. رجل حسابات وأرباح. صحيح أنه واجه العواصف، وقاد السفن في ليالٍ كانت السماء فيها تبدو وكأنها تنهار فوق الرؤوس، لكنه لم يكن جندياً. لم يكن أمير بحر.

قال أخيراً : سفني ليست مجهزة لحرب من هذا النوع.

ابتسم لفنغستون : اختر السفينة التي تريدها، واترك لنا أمر التسليح.

والمدافع ؟

نوفرها.

والذخيرة ؟

نوفرها.

والرجال ؟

لك حرية اختيارهم.

نظر إليه كيد طويلاً. كان العرض مغرياً بصورة تدعو للريبة.

قال في هدوء : هذا يبدو أشبه بحملة عسكرية ملكية، لا بمهمة لتاجر بحري.

قال لفنغستون : ربما.

ثم أضاف : لكن البحرية البريطانية ترى فيك أكثر من مجرد تاجر.

ساد الصمت.

قال الرجل : خلال سنوات عملك الطويلة لم تفقد سفينة واحدة.

ابتسم كيد ابتسامة صغيرة. لم يكن ذلك حظاً. كان يعرف البحر كما يعرف المرء وجه أمه. كان يعرف لون الموج قبل العاصفة. ورائحة الريح قبل تغير الطقس. وصوت الحبال عندما تقترب النهاية.

قال : الحذر يا سيدي، ليس بطولة.

أجابه لفنغستون : لكنه أحياناً أعظم من البطولة.

ثم مال نحوه قائلاً : الإمبراطورية لا تحتاج إلى المتهورين، بل إلى الرجال الذين يعودون بسفنهم إلى الميناء.

ظل كيد صامتاً. في داخله كان صوت آخر يتحدث. هل أقبل ؟ هل أترك التجارة من أجل الحرب ؟وهل الحرب تختلف كثيراً عن التجارة في هذا العالم ؟

فكر في زوجته. في بيته. في الحفلات التي كان يقيمها في نيويورك. في الموسيقى والشموع والضحكات. ثم فكر في البحر. في ذلك النداء القديم الذي لا يستطيع أي بحار حقيقي أن يقاومه.

قال أخيراً : وبكل صراحة... لا أرغب في خسارة إحدى سفني في مشروع كهذا.

ابتسم لفنغستون كمن كان ينتظر هذه الإجابة.

إذن لن تخسر شيئاً.

رفع كيد حاجبيه.

قال الرجل : لسنا بحاجة إلى سفنك يا كيد... نحن بحاجة إليك أنت.

ثم تابع : إلى خبرتك. إلى قدرتك على القيادة. إلى هدوئك عندما يفقد الآخرون أعصابهم. إلى طريقتك في جعل الرجال يقاتلون وهم يبتسمون للموت.

ضحك كيد قائلاً : ومن أين عرفتم كل هذا ؟

أجاب لفنغستون : من تقرير مفصل قدمه الجنرال بلمونت آرثر، حاكم نيويورك.

ابتسم كيد قائلاً : إنه صديق قديم.

نعلم ذلك.

وكثيراً ما شرفني هو وزوجته بحضور المناسبات العائلية في منزلي.

نعلم ذلك أيضاً.

اتسعت ابتسامة كيد.

إذاً كنت موضوع مراقبة دقيقة دون أن أعلم ؟

قال لفنغستون وهو يرفع كأسه : تحريات استمرت عاماً كاملاً يا عزيزي الكابتن وليم كيد.

ثم نهض واقفاً واتجه نحو النافذة. كان الضباب قد ابتلع الميناء كله. ولم تعد تُرى سوى أضواء بعيدة تهتز فوق الماء الأسود.

قال دون أن يلتفت : الإمبراطوريات يا كيد لا تسلم أسرارها للصدفة.

ثم استدار نحوه.

إذا وافقت ، وإذا لم تخذل الملك، فعندما تعود إلى نيويورك ستجد في الميناء سفينة جديدة تنتظرك.

توقف قليلاً.

أجمل سفينة رأتها عيناك. وأقواها. وقد اخترتها لك بنفسي.

شعر كيد بأن قلبه يخفق بقوة.

سفينة جديدة. مهمة ملكية. اسم يعرفه الملك. مجد ينتظره في الأفق.

لكن شيئاً غامضاً كان يتحرك في أعماقه. إحساس خافت يشبه صوت الأمواج عندما تضرب صخوراً بعيدة في الليل. ذلك النوع من الأصوات الذي لا يسمعه إلا البحارة القدامى.

رفع عينيه نحو النافذة. كان الضباب يبتلع الميناء رويداً رويداً.

وفكر : كم من الرجال أبحروا بحثاً عن المجد فعادوا يحملون اللعنة ؟ وكم من السفن خرجت من المرافئ تحت رايات الملوك ، ثم انتهت مطاردة من الملوك أنفسهم ؟

لم يكن يعرف أن تلك الليلة ستقسم حياته إلى نصفين : حياة التاجر المحترم... وحياة الرجل الذي سيذكره التاريخ طويلاً، لكن ليس بالطريقة التي كان يتخيلها وهو يجلس أمام نار الموقد في منزل لفنغستون.

في تلك اللحظة فقط ، مد لفنغستون يده قائلاً : ما قولك يا كابتن ؟

نظر وليم كيد إلى اليد الممدودة أمامه. ثم إلى النار. ثم إلى الظلام خلف النافذة. وأدرك، دون أن يدري لماذا، أن الإنسان أحياناً لا يختار طريقه...بل إن الطريق هو الذي يختاره.

رفع يده ببطء. وصافحه. وفي تلك المصافحة الهادئة...

كانت عجلات القدر قد بدأت بالدوران.

# جالي المغامرة
## الرحلة التي غيّرت مصير الكابتن وليم كيد

كان ميناء نيويورك في ذلك الصباح الصيفي من عام 1696 يبدو كأنه يقف على أطراف أصابعه مترقبًا حدثًا لا يشبه سواه. كانت الرياح القادمة من الأطلسي تحمل رائحة الملح والأخشاب الرطبة والقطران ، بينما كانت أسراب النوارس تدور فوق الصواري العالية وكأنها رسل البحر التي لا تنام.

وقف الكابتن وليم كيد على ظهر المركب الصغير الذي أعاده إلى المدينة، وعيناه تجوبان الأفق المزدحم بالسفن التجارية وسفن الصيد والقوارب الصغيرة. كان قد عاد من لندن مثقلًا بالأفكار والأسئلة أكثر مما عاد بالأجوبة.

وفجأة توقفت عيناه. هناك، عند الرصيف الشرقي، كانت تقف سفينة لم ير مثلها من قبل. بدت كأنها قطعة من البحر نفسه تحولت إلى خشب وحديد وأشرعة. وعلى جانبيها كُتب اسمها بحروف كبيرة واضحة : جالي المغامرة.

ساد الصمت في داخله لحظة طويلة.

ثم همس لنفسه : أهذه هي إذن ؟

اقترب أكثر.

كان هيكل السفينة الأسود اللامع يعكس ضوء الشمس، بينما ارتفعت صواريها الثلاث كأنها أشجار صنوبر عملاقة نبتت فوق الماء. أما المدافع المصطفة على جانبيها فبدت كأنياب وحش بحري يستعد لإظهار قوته للعالم.

سألت صديقتنا وقد اتسعت عيناها دهشة : وماذا عن بحارتها وضباطها ومدافعها ؟

ابتسمت ليدي دريك، أمينة قلعة زرشيب ومتحف البحرية البريطانية، وقالت بصوت هادئ يشبه أصوات الصفحات القديمة:

لم تكن جالي المغامرة مجرد سفينة يا عزيزتي، بل كانت مشروعًا كاملًا للحرب في البحار البعيدة.

ثم تابعت : كان على متنها خمسون بحارًا وضابطًا من أكثر رجال كيد إخلاصًا وخبرة. رجال عبروا معه العواصف والمجاعات والتمردات الصغيرة التي تولد أحيانًا في قلب البحر. كانوا يعرفون صوته قبل أن ينطق، ويفهمون إشارته قبل أن يرفع يده.

وأضافت : أما تسليحها فكان استثنائيًا بالنسبة لسفينة من هذا النوع؛ أربعون مدفعًا كامل التجهيز، إضافة إلى مخازن ضخمة من البارود والطلقات الحديدية، وبراميل الماء العذب، واللحوم المملحة، والبسكويت البحري، وكل ما يكفي لرحلة طويلة نحو المحيط الهندي.

صمتت قليلًا ثم قالت : كانت سفينة صنعت لتطارد القراصنة... أو ربما لتصنع قرصانًا جديدًا دون أن تدري.

وفي الميناء كان يقف رجل يراقب المشهد بابتسامة رضا واضحة. كان حاكم نيويورك، اللورد بلمونت. تقدم بخطوات واثقة نحو كيد وصافحه بحرارة.

مرحبًا بعودتك يا كابتن كيد.

أشكرك يا سيدي الحاكم.

ثم اصطحبه إلى السفينة الجديدة.

كان الرجلان يسيران فوق الألواح الخشبية بينما البحارة ينحنون احترامًا.

قال بلمونت وهو ينظر إلى الأشرعة المطوية : صاحب الجلالة يتوقع أن تبدأ رحلتك إلى المحيط الهندي في أقرب فرصة.

ظل كيد صامتًا لثوانٍ.

لم يكن يخشى البحر. لم يكن يخشى القراصنة. لكنه كان يخشى شيئًا آخر أكثر غموضًا. السياسة.

رفع رأسه وقال بهدوء : يا عزيزي لورد بلمونت، إن أوامر جلالة الملك على عيني ورأسي، لكنني كنت أتوقع أن تعرض علي الأميرالية البريطانية عقدًا واضحًا يحدد نصيبي من الغنائم التي سيتم الاستيلاء عليها من سفن القراصنة.

ثم توقف قليلًا وأكمل : كما أنني أريد بندًا صريحًا يحدد مرتبات البحارة والضباط، والجهة التي ستتحمل تلك النفقات، وتعويضًا مناسبًا عن توقف أعمالي التجارية طوال فترة المهمة.

كان بلمونت ينظر إليه مبتسمًا. ثم انفجر ضاحكًا.

ما زلت تاجرًا يا كيد حتى وأنت ترتدي ثياب الصيادين الملكيين.

ابتسم كيد ابتسامة خفيفة.

قال الحاكم : لقد تركت البحرية البريطانية أمر هذا العقد لي شخصيًا ، ويسعدني أن تشرفني غدًا أنت والسيدة زوجتك في منزلي لنناقش جميع البنود التي تريدها.

ثم اقترب منه قليلًا وأضاف : ولدي لك أيضًا مفاجأة أظن أنها ستسعدك كثيرًا.

ارتفعت حاجبا كيد.

مفاجأة ؟

ابتسم بلمونت في غموض.

ماذا لو تركناها إلى ما بعد توقيع العقد ؟

وفي تلك الليلة لم يستطع وليم كيد النوم. جلس قرب النافذة ينظر إلى أضواء الميناء البعيدة. كان البحر ساكنًا على غير عادته. أما عقله فلم يعرف السكون.

راح يحدث نفسه : مطاردة القراصنة...

كم يبدو الأمر نبيلًا حين يقال داخل القصور.

لكن ماذا سيحدث حين نصل إلى المياه البعيدة حيث لا قانون سوى المدافع ؟

كان يعرف البحر جيدًا. ويعرف الرجال الذين يعيشون فيه. يعرف أن الخط الفاصل بين القبطان الشرعي والقرصان لم يكن دائمًا أوضح من خط يرسمه قلم سياسي على ورقة رسمية.

أغمض عينيه. وتذكر وجوه رجال عرفهم في شبابه. بعضهم مات فقراء. وبعضهم مات أغنياء. لكن معظمهم ماتوا مشنوقين.

وفي صباح اليوم التالي جلس كيد أمام بلمونت فوق مائدة طويلة غطتها الأوراق والأختام الملكية.

وبعد ساعات من النقاشات والتعديلات انتهى كل شيء.

عندها فقط فتح الحاكم درج مكتبه وأخرج ظرفًا كبيرًا يحمل ختم البحرية البريطانية.

تناوله كيد بحذر. كانت عليه توقيعات كبار قادة الأميرالية البريطانية، ومصادقة الملك وليم الثالث نفسه.

فتح الرسالة ببطء. وكلما قرأ سطرًا ازداد وجهه جدية.

سألت صديقتنا : وما الذي احتوته الرسالة؟

أجابت ليدي دريك : كانت أوامر واضحة لا تحتمل التأويل.

ثم تابعت : كلفت الرسالة الكابتن كيد بمطاردة سفن القراصنة في المحيط الهندي، والقبض على طواقمها، ومحاكمتهم على متن جالي المغامرة نفسها.

ومحاكمتهم على السفينة ؟

نعم.

وتنفيذ الأحكام أيضًا ؟

نعم.

ساد الصمت.

ثم أكملت ليدي دريك : إذا صدر حكم بالإعدام يُنفذ في البحر، وإذا كان الحكم بالسجن يوضع المتهمون في زنزانات السفينة حتى العودة إلى لندن أو نيويورك لتسليمهم للسلطات.

ظل كيد يقرأ الرسالة مرة أخرى. ثم للمرة الثالثة. وأخيرًا ضمها إلى صدره. لم تكن مجرد ورقة. كانت درعًا. وكانت أيضًا سيفًا. وربما كانت حبل مشنقة مؤجلًا لا يعرف بعد أنه يحمل اسمه.

قال في نفسه : الآن أملك السلطة.

لكن صوتًا آخر داخله همس : وهل يملك الإنسان السلطة فعلًا أم أن السلطة هي التي تملكه؟

⊥

في السادس من يوليو أشرقت الشمس على ميناء نيويورك وكأنها تودع رجلًا لن يعود كما ذهب.

اصطف الناس على الأرصفة.

كان البحارة يجرون الحبال ويرفعون الأشرعة البيضاء الضخمة.

صدحت الأوامر. دوت الصفارات. وتحركت السفينة ببطء.

وقف وليم كيد على مؤخرة السفينة ينظر إلى المدينة التي تبتعد شيئًا فشيئًا.

رأى البيوت الصغيرة. ورأى الكنائس. ورأى الدخان المتصاعد من المداخن الحجرية.

ثم رأى زوجته ترفع يدها مودعة.

شعر بانقباض مفاجئ في صدره.

كم مرة ودع الموانئ ؟ وكم مرة عاد إليها ؟

ومع ذلك بدا له هذا الوداع مختلفًا. أكثر برودة. أكثر غموضًا.

كأن البحر يخفي له شيئًا في أعماقه.

صرخ أحد الضباط : الأشرعة جاهزة يا سيدي !

أومأ برأسه.

ثم قال بصوت قوي : إلى المحيط الهندي.

⊥

تحركت السفينة. واهتز الماء حولها. وبدأت نيويورك تتحول تدريجيًا إلى خط رمادي بعيد عند الأفق.

وقف كيد طويلًا ينظر خلفه. ثم استدار أخيرًا نحو الشرق. نحو المياه التي ابتلعت آلاف الرجال قبله.

قال في سره : إما أن أعود بطلاً...

ثم سكت.

وأكمل بعد لحظة طويلة : أو أعود شيئًا آخر.

ضحكت صديقتنا وقالت : ليدي دريك... وهل كان للقراصنة جنسيات أصلًا؟

ابتسمت السيدة ابتسامة خفيفة وقالت : بالطبع كان لهم ذلك.

ثم أضافت : لكن البحر يا عزيزتي كان يمحو الجنسيات بسرعة مذهلة.

وأردفت : كان بين القراصنة إنجليز وفرنسيون وهولنديون وبرتغاليون وإسبان وعرب وهنود وأفارقة. بعضهم فر من الفقر، وبعضهم فر من الظلم، وبعضهم أحب الحرية أكثر مما أحب القانون.

سألت الفتاة : وهل كانوا جميعًا أشرارًا ؟

صمتت ليدي دريك قليلًا.

ثم قالت : التاريخ لا يحب الإجابات السهلة.

وأضافت وهي تنظر إلى صورة قديمة للكابتن كيد معلقة على الجدار : أحيانًا يبدأ الرجل رحلته لصيد القراصنة...

ثم ينتهي به الأمر وهو يهرب من السفن التي تطارده بوصفه واحدًا منهم.

سألتها الفتاة بدهشة : وهل حدث ذلك مع وليم كيد ؟

نظرت ليدي دريك إلى النافذة حيث كانت أمواج نهر التايمز تضرب الجدران الحجرية القديمة.

ثم قالت بصوت منخفض : تلك يا صغيرتي... هي القصة التي جعلت اسمه يعيش ثلاثة قرون كاملة بين صفحات التاريخ وأساطير البحارة.

## لغز الراية السوداء

## كابتن كيد بين المجد والمشنقة والكنز المفقود

أراحت الليدي دريك ظهرها إلى المقعد العتيق ، وراحت أصابعها الطويلة تداعب حافة فنجان الشاي الإنجليزي كأنها تستدعي من بخاره أشباح قرون مضت. كان المطر يطرق نوافذ المنزل اللندني في إيقاع هادئ يشبه وقع أقدام البحارة العائدين من المجهول ، بينما تراقصت ألسنة النار في المدفأة كأنها تحاول أن تروي هي الأخرى حكايات البحر.

رفعت الليدي دريك عينيها نحونا وقالت بصوت خفيض يحمل وقار المؤرخين وحزن الشهود :

في تلك الأيام ، لم تكن البحار تعرف البراءة ، ولم تكن الإمبراطوريات تخوض حروبها بأسمائها الحقيقية. كانت الدول الكبرى، وعلى رأسها فرنسا وهولندا والبرتغال، تطلق إلى المحيطات سفنًا حربية ضخمة، لكنها لم تكن تحمل أعلامها الوطنية، بل كانت ترفع الراية السوداء التي تتوسطها الجمجمة والسيفان المتقاطعان.

توقفت قليلًا، ثم أضافت :

كان العالم يومها أكثر نفاقًا مما نتصور. الدولة تمنح القرصان المال والسلاح والأوامر السرية ، ثم تتبرأ منه إذا وقع في الأسر. كان القرصان ذراعًا خفية للإمبراطورية ؛ ما دام منتصرًا فهو بطل مجهول ، فإذا هزم أصبح مجرمًا لا يعرفه أحد.

سألتها : وإلى أي مدى نجح كابتن كيد في مهمته في المحيط الهندي ؟

ابتسمت ابتسامة صغيرة بدت كأنها مزيج من الإعجاب والأسى.

في البداية ، بدا الأمر وكأنه نجاح باهر. الأخبار التي وصلت إلى لندن ونيويورك عن نشاطه أدخلت البهجة إلى قلوب شركائه ، وإلى قلب الملك وليم الثالث على وجه الخصوص. كانت التقارير تتحدث عن

مطاردات ناجحة ، وسفن معادية تم اعتراضها ، وشحنات ثمينة وقعت في يديه.

سكتت لحظة ثم حدث ما لم يكن في الحسبان.

ساد الصمت. حتى المطر بدا وكأنه توقف ليستمع.

قالت : انقطعت أخباره فجأة ، كما تنطفئ النجوم في ليل كثيف السحب. لم يعد يصل إلى لندن شيء مؤكد عنه ، وكل ما بقي كان الشائعات والأساطير.

مالت إلى الأمام قليلًا.

قيل إنه قتل في إحدى معاركه ضد القراصنة البرتغاليين ، وابتلع البحر جثته كما ابتلع آلاف البحارة قبله.

ثم تابعت : وقيل إنه تعرض لإهانات قاسية من بعض قادة السفن الحربية البريطانية في المحيط الهندي، إذ شككوا في شرعية مهمته واحتقروه بوصفه مجرد مرتزق يحمل تفويضًا ملكيًا هشًا لا يساوي الورق الذي كتب عليه.

انعكس ضوء النار على وجهها وهي تواصل :

وتقول روايات أخرى إنه ، في لحظة غضب وكرامة مجروحة ، اشتبك بالمدافع مع بعض السفن البريطانية نفسها.

شعرت بقشعريرة تسري في ظهري.

لكن الليدي دريك لم تكن قد انتهت بعد.

خفضت صوتها أكثر وقالت : وقيل ما هو أفظع من ذلك كله.

سألتها : وما ذاك الفظيع يا ليدي دريك ؟

نظرت إلى النار المشتعلة أمامها كأنها ترى فيها صورة رجل يقف فوق سطح سفينة تتلاطم حولها الأمواج.

ثم قالت : قيل إنه ، من فرط حنقه على الإهانات التي وجهها إليه أبناء وطنه من ضباط البحرية البريطانية ، أمر بإنزال الراية البريطانية ، ورفع مكانها الراية السوداء.

شعرت صديقتنا بالدهشة قبل أن تسبقني بالكلام : صار قرصانًا ؟

أجابت الليدي دريك : هذا ما قيل.

ثم أضافت : ومنذ تلك اللحظة انقطعت أخباره تمامًا ، واختفت سفينته «جالي المغامرة» كما تختفي الأحلام في ضباب الفجر.

ساد الصمت مرة أخرى.

كنت أحدق في النار، لكن عقلي كان يبحر بعيدًا.

رأيت في خيالي رجلًا يقف وحيدًا فوق سطح سفينته تحت سماء استوائية مثقلة بالغيوم، ينظر إلى الراية البريطانية وهي تهبط ببطء.

كيف كانت تلك اللحظة ؟ هل شعر بالخيانة ؟ هل شعر أنه أصبح غريبًا عن وطنه ؟ أم أن شيئًا ما انكسر داخله إلى الأبد ؟

تساءلت بيني وبين نفسي :

ما الذي يدفع رجلًا قاتل باسم الملك إلى أن يدير ظهره للملك نفسه ؟ هل الخيانة قرار مفاجئ ؟ أم أنها نهاية طويلة لسلسلة من الإهانات والخذلان ؟

ربما لم يكن كيد قد اختار القرصنة. ربما كانت القرصنة هي التي اختارته.

قالت الليدي دريك وكأنها قرأت أفكاري : البحر يا سيدي لا يغير الرجال، بل يكشف ما كان مختبئًا في أعماقهم.

ثم أضافت : لكن السؤال الحقيقي ليس ما إذا كان كيد قد صار قرصانًا أم لا.

رفعت حاجبيها قليلًا.

السؤال هو : هل كان الرجل الذي رفع الراية السوداء هو كابتن كيد فعلًا ؟

نظرنا إليها في ذهول.

تابعت : هناك فرضية أخرى لا تقل غرابة.

اقتربت أكثر من الطاولة وهمست : ماذا لو كان كيد قد قتل بالفعل في إحدى معاركه في المحيط الهندي ؟

سألتها : وماذا بعد ؟

قالت :

وماذا لو استولى قرصان آخر على سفينته، وانتحل شخصيته، واستفاد من سمعته وهيبته ليعيث فسادًا في المحيطين الهندي والأطلسي؟

ساد الصمت مجددًا.

كان الاحتمال مرعبًا بقدر ما كان منطقيًا.

ففي زمن لم تكن فيه الصور الفوتوغرافية موجودة ، وكانت الرسائل تستغرق شهورًا لتصل ، لم يكن انتحال شخصية رجل مشهور بالأمر المستحيل.

قلت : وهل فكرت الأدميرالية البريطانية في هذا الاحتمال ؟

تنهدت الليدي دريك وقالت : ذلك يا سيدي هو اللغز المحير.

ثم نهضت ببطء واتجهت نحو إبريق الشاي. اشربا الشاي معي، وبعدها نبدأ في تفكيك أجزاء هذا اللغز. سكبت الشاي في هدوء أرستقراطي قديم، ثم أضافت :

وسترون بأنفسكما أن كل باب نفتحه يقود إلى باب آخر ، وكل إجابة تولد سؤالًا جديدًا ، حتى نجد أنفسنا أمام متاهة من الأسرار لا نعرف أين تبدأ ولا أين تنتهي.

أخذت رشفة صغيرة ثم قالت :

فاللغز الأول هو: هل احترف كابتن كيد القرصنة حقًا ؟

رفعت إصبعها.

أما اللغز الثاني فهو : إن لم يكن قد احترفها ، فمن هو الرجل الذي ارتدى اسمه كما يرتدي الممثل قناعًا فوق المسرح ؟

أما اللغز الثالث...

فتوقفت.

فهو الأشد غرابة.

سألتها صديقتنا بلهفة : وما هو ؟

ابتسمت الليدي دريك.

أين ذهب الكنز ؟

كأن هذه الكلمات كانت الشرارة التي أيقظت صديقتنا من عالم التاريخ والأساطير.

اعتدلت في جلستها وقالت بنبرة امتزج فيها الضيق بالطمع المشروع : في الحقيقة، لا يشغلني من كل هذه القصة سوى الكنز.

التفتت إلينا وأضافت مغتاظة : ألسنا لهذا السبب جئنا إلى لندن أصلًا ؟ ثم سافرنا إلى نيويورك ؟

لوحت بيدها في الهواء.

كابتن كيد ، أيا كانت شخصيته الحقيقية ، مات منذ قرون. شنق ، ودُفن ، وشبع موتًا كما يقولون.

ثم نظرت نحوي مباشرة.

فلماذا نشغل أنفسنا به أكثر من اللازم ؟

وتابعت : أما الكنز فهو غايتنا الحقيقية.

توقفت لحظة قبل أن تقول بنبرة حاسمة : وتذكر جيدًا أن لي النصف.

ابتسمت ابتسامة صغيرة.

ولك ما تبقى.

ضحكت رغم توتري وقلت : أتشكين في مصداقية اتفاقاتنا؟

ثم أضفت : الكنز مناصفة، فاطمئني.

لكنني، في أعماقي، لم أكن أفكر في الذهب. كان هناك شيء آخر يشغلني. شيء أكبر من الصناديق المليئة بالجواهر والعملات. كنت أفكر في ذلك الرجل الذي وقف يومًا ما فوق سطح سفينة وحيدًا أمام البحر والعالم.

هل كان مذنبًا أم ضحية ؟ هل خانه وطنه ؟ أم خان هو وطنه أولًا ؟ هل كان قرصانًا بالفعل ؟

أم مجرد جندي استخدمته الإمبراطورية ثم ألقت به في الظلام عندما انتهت الحاجة إليه ؟

كنت أشعر، على نحو غريب ، أنني لا أطارد كنز كابتن كيد ، بل أطارد الحقيقة المدفونة معه. وربما كانت الحقيقة أثمن من الذهب نفسه.

قالت الليدي دريك وكأنها التقطت ذلك الخيط الخفي من أفكاري :

الكنوز ليست دائمًا ما ندفنه تحت التراب.

سألتها : وماذا تكون إذن ؟

ابتسمت وقالت : أحيانًا تكون قصة ضائعة.

ثم أضافت :

وأحيانًا تكون اسم رجل حاول التاريخ أن يدفنه حيًا.

نظرت إلى النافذة. كان المطر قد توقف أخيرًا. لكن لندن ظلت غارقة في ضبابها الرمادي الكثيف.

وفي تلك اللحظة تحديدًا أدركت أن رحلتنا الحقيقية لم تبدأ بعد.

كان بيننا وبين الكنز جلسة أخيرة مع الليدي دريك. أما بيننا وبين الحقيقة... فكان يقف بحر كامل من الأسرار ، وسفن غارقة ، وخرائط ممزقة ، وذكريات دفنتها القرون تحت طبقات من الملح والنسيان.

ولأول مرة منذ بدأنا رحلتنا ، شعرت أن الكنز ربما لا يريد أن يُعثر عليه. وأن بعض الأسرار تدافع عن نفسها كما تدافع القلاع عن ملوكها.

أما كابتن كيد... فربما كان لا يزال، في مكان ما من ذاكرة المحيط، واقفًا فوق سطح سفينته، ينظر إلى الراية التي ترفرف فوق رأسه، ويتساءل السؤال نفسه الذي ما زال التاريخ عاجزًا عن الإجابة عنه :

من أنا حقًا ؟ قرصان ؟ أم ضحية إمبراطورية ؟ أم مجرد رجل أضاعه البحر بين الراية البريطانية والراية السوداء ؟

# الكابتن كيد بين رايتين
# لغز البحار الذي حيّر الإمبراطوريات

كان المساء يهبط على المدينة العتيقة هبوط طائر متعب عاد من رحلة طويلة فوق البحار. وفي القاعة الواسعة التي تطل نوافذها على النهر الرمادي، كانت النار تتراقص في الموقد الحجري كأنها تستعيد حكايات قرون مضت، بينما راحت قطرات المطر تدق الزجاج في إيقاع خافت يشبه همس الأرواح القديمة.

جلست ليدي دريك قرب الطاولة المستديرة ، وقد انعكست ألسنة اللهب على ملامحها الهادئة ، فبدت وكأنها إحدى شخصيات اللوحات الإنجليزية القديمة التي نجت من عبور الزمن. كانت تمسك بفنجان الشاي بين يديها في سكون، إلا أن عينيها كانتا تحملان ذلك البريق الذي يسبق دائماً الحكايات الكبيرة.

قالت بصوت منخفض لكنه واضح :

في تلك الأيام ، يا سيدي ، لم تكن البحار مجرد طرق للتجارة، بل كانت ميادين حرب مفتوحة لا تعترف بالقوانين إلا حين تخدم الأقوياء.

ساد الصمت لحظة.

ثم تابعت وهي تنظر إلى النار :

كانت فرنسا ، وهولندا ، والبرتغال ، وحتى إنجلترا نفسها، ترسل سفنها الثقيلة تجوب المحيطات البعيدة. سفن ضخمة، تتدلى مدافعها من الجانبين كأنياب وحوش بحرية، وترفرف فوق صواريها رايات سوداء تحمل جماجم بيضاء وسيفين متقاطعين.

رفع الرجل الجالس أمامها رأسه في دهشة.

قال : رايات القراصنة ؟

ابتسمت ابتسامة صغيرة حزينة. نعم... رايات القراصنة.

ثم أضافت : لكن الحقيقة كانت أكثر تعقيداً من ذلك بكثير. فالدول كانت تحتاج إلى القراصنة كما يحتاج الظل إلى الجسد، لكنها كانت تخجل

من الاعتراف بهم أمام العالم. كانت تمنحهم الذهب والسفن والرسائل السرية، ثم تنكر معرفتها بهم إذا وقعوا في الأسر.

أطرقت قليلاً.

كان القرصان يعمل للدولة ، والدولة تتظاهر بأنها لا تعرفه. فإذا عاد منتصراً استقبلته في الخفاء بالأوسمة والذهب، وإذا أُسر أو أُعدم تركته وحيداً يواجه حبل المشنقة.

ساد الصمت مجدداً.

كان صوت المطر قد ازداد قوة في الخارج.

قال الرجل : وهل كان الكابتن كيد واحداً من هؤلاء ؟

رفعت ليدي دريك بصرها إليه.

هذا هو السؤال الذي حيّر المؤرخين أكثر من ثلاثة قرون.

ثم تنهدت ببطء.

لقد أُرسل كابتن كيد إلى المحيط الهندي بمهمة واضحة : مطاردة القراصنة الذين كانوا يهددون تجارة الإمبراطورية الإنجليزية.

توقفت قليلاً قبل أن تضيف : وكان الجميع ينتظر نجاحه.

اقترب الرجل بجسده إلى الأمام.

وهل نجح ؟

ابتسمت ابتسامة غامضة. في البداية بدا الأمر كذلك.

ثم تابعت : الأخبار الأولى التي وصلت إلى لندن ونيويورك كانت تبعث على الفرح. تحدثت الرسائل عن مطاردات طويلة في البحار الشرقية، وعن سفن مشبوهة هاجمها كيد، وعن غنائم بدأت تتدفق إلى شركائه.

ارتشفت قليلاً من الشاي.

لقد امتلأت قلوب المستثمرين بالرضا، وشعر النبلاء الذين موّلوا الحملة بأن الذهب الذي دفعوه سيعود إليهم مضاعفاً.

خفضت صوتها أكثر : أما الملك وليم الثالث نفسه فقد تابع أخباره باهتمام بالغ.

قال الرجل : إذن كان كل شيء يسير كما ينبغي.

هزت رأسها ببطء.

لو استمرت الأمور كذلك لما وُلدت هذه الأسطورة.

تراقص ضوء النار في عينيها.

فجأة... انقطعت الأخبار.

ساد الصمت. حتى صوت المطر بدا وكأنه توقف ليستمع.

مرت الأسابيع. ثم الشهور. ثم السنوات. ولم يعد يصل من المحيط الهندي سوى الشائعات.

قال الرجل : أي نوع من الشائعات ؟

تنهدت ليدي دريك.

في البحار البعيدة تولد الشائعات بسرعة أكبر من الأمواج.

ثم أضافت :

قيل إنه قُتل في معركة شرسة ضد قراصنة برتغاليين قرب سواحل مدغشقر. وقيل إن سفينته غرقت خلال عاصفة هوجاء لم ينج منها أحد. وقيل إن بحارته تمردوا عليه وألقوه في البحر وهو حي.

صمتت قليلاً. ثم رفعت رأسها نحوه.

لكن أكثر الروايات إثارة للرعب كانت شيئاً آخر.

تجمدت ملامح الرجل. وما هو ؟

اقتربت ليدي دريك من الطاولة كأنها تخشى أن تسمعها الجدران. قيل إن بعض قادة البحرية البريطانية في المحيط الهندي أهانوه.

انعقد حاجبا الرجل. أهانوه؟

نعم. اتهموه بالفشل. وسخروا من بطء حملته. بل إن بعضهم شكك في نزاهته.

أطرقت قليلاً.

كان كيد رجلاً قاسياً مع الآخرين ، لكنه كان أكثر قسوة على نفسه.

ثم نظرت إلى النار.

لقد بنى حياته كلها على فكرة واحدة: الشرف. كان يرى نفسه بحاراً يخدم التاج البريطاني. وكان يؤمن أن ولاءه سيكافأ يوماً.

ابتسمت ابتسامة مريرة.

لكن الإنسان يستطيع تحمل الجوع أكثر مما يستطيع تحمل الإهانة.

ساد الصمت.

ثم قالت : وتقول الشائعات إنه حين تكررت الإهانات، وحين شعر أن وطنه بدأ يشك فيه، حدث شيء غيّر كل شيء.

ابتلع الرجل ريقه. ماذا حدث ؟

قالت بصوت خافت : يقال إنه أنزل الراية البريطانية.

ساد الصمت في القاعة. حتى النار بدت وكأنها توقفت عن الحركة.

قال الرجل ببطء : ثم ماذا ؟

رفعت ليدي دريك عينيها إليه. رفع راية القراصنة.

ارتسم الذهول على وجهه. صار قرصاناً ؟

أجابت :

هذا ما قالته الشائعات.

ثم أضافت:

لكن الحقيقة في البحار لا تكون دائماً كما تبدو.

أخذت لحظة صمت طويلة.

بعد ذلك اختفت أخبار الكابتن كيد تماماً. واختفت معها سفينته الشهيرة، جالي المغامرة. كأن البحر ابتلعهما معاً.

حدق الرجل في الفراغ.

كان يحاول أن يتخيل تلك السفينة وهي تبحر وحدها وسط الضباب، بلا ميناء، بلا وطن، بلا يقين.

ثم قال : وهل توقفت البحرية البريطانية عن البحث عنه؟

ابتسمت ليدي دريك.

هنا يبدأ اللغز الحقيقي.

وضعت فنجانها على الطاولة.

فالمنطق يقول إن الأدميرالية البريطانية كانت ستطارده في كل بحر وميناء. لكن الوثائق القديمة لا تخبرنا بالكثير. وكأن أحداً أراد لتلك الصفحات أن تختفي.

أحنى الرجل رأسه قليلاً. ربما كانت الحكومة تخشى الفضيحة.

هزت رأسها.

وربما كانت تعرف أكثر مما قالت.

ثم أضافت : تخيل الأمر.

رجل ترسله الدولة لمحاربة القراصنة. ثم يختفي. ثم يظهر قرصان يحمل اسمه. ثم تبدأ السفن التجارية بالحديث عن وحش بحري جديد لا يرحم أحداً.

ارتعشت النار في الموقد.

هل كان ذلك الرجل هو كيد حقاً ؟ أم شخصاً آخر ؟

ظل الرجل صامتاً.

أما ليدي دريك فقد بدا أنها تنظر إلى مكان بعيد لا يراه أحد غيرها.

قالت : أحياناً أفكر في كيد نفسه.

في تلك الليلة التي يقال إنه أنزل فيها الراية البريطانية.

كيف كان يشعر ؟ هل كان غاضباً ؟ أم محطماً ؟ هل شعر بالخيانة ؟ أم شعر بالتحرر ؟

تنهدت ببطء.

البشر لا يتحولون إلى وحوش في لحظة واحدة. بل يحدث ذلك ببطء شديد. قطرة بعد قطرة. إهانة بعد إهانة. خيبة بعد خيبة.

أطرقت قليلاً.

ربما وقف كيد على ظهر السفينة ينظر إلى البحر الأسود الممتد أمامه. وربما سأل نفسه سؤالاً واحداً فقط.

رفعت رأسها. إذا كان وطني لا يثق بي، فلماذا أظل وفياً له ؟

ساد الصمت طويلاً.

ثم قالت : لكن هناك احتمالاً آخر.

رفع الرجل رأسه بسرعة. وما هو ؟

أجابت :

أن يكون كيد قد مات بالفعل. في معركة. أو في عاصفة. أو بسبب المرض. ثم جاء رجل آخر. رجل يعرف اسمه. ويعرف سمعته. ويعرف الخوف الذي يثيره ذكره في الموانئ.

توقفت قليلاً. فارتدى شخصيته كما يرتدي المرء معطفاً قديماً.

اتسعت عينا الرجل. انتحل شخصيته ؟

ولم لا ؟

كم من الملوك عاشوا وماتوا بينما كان غيرهم يحكم بأسمائهم ؟ كم من الجنرالات خاضوا حروباً لم يحضروها ؟ كم من الأساطير وُلدت لأن الحقيقة كانت أكثر ضعفاً من الخيال ؟

اقتربت من النافذة. كان المطر قد تحول إلى ضباب كثيف.

ربما كان القرصان الجديد أكثر قسوة. أكثر دموية. أكثر جشعاً. وربما وجد في اسم كيد سلاحاً يسبق مدافعه.

ثم استدارت نحوه.

فالناس يخافون الأسماء أحياناً أكثر مما يخافون أصحابها.

وقف الرجل بدوره. إذن نحن لا نعرف الحقيقة ؟

ابتسمت ليدي دريك.

الحقيقة يا سيدي تشبه الجزر الصغيرة في المحيط. نرى أطرافها فقط. أما الجزء الأكبر منها فيبقى غارقاً تحت الماء.

ثم نظرت إلى فنجان الشاي الذي برد منذ زمن.

كل طريق يقود إلى لغز. وكل لغز يقود إلى لغز أكبر.

اقترب الرجل من النافذة.

كان الضباب يبتلع النهر شيئاً فشيئاً.

فقال بصوت خافت :

وهل سنعرف يوماً إن كان الكابتن كيد قد أصبح قرصاناً فعلاً ؟

ابتسمت ليدي دريك ابتسامة غامضة تشبه ابتسامات التماثيل القديمة.

ثم قالت : ربما. وربما لا. لكنني أعرف شيئاً واحداً. البحر لا يكشف أسراره بسهولة.

صمتت لحظة.

ثم أضافت : فهو يحتفظ في أعماقه بالسفن الغارقة، والذهب المفقود، والعظام المنسية، كما يحتفظ أيضاً بالحقيقة.

كانت النار في الموقد تقترب من الانطفاء.

أما خارج النافذة فقد كان الضباب يزداد كثافة ، حتى بدا العالم كله وكأنه يغرق في بحر أبيض بلا نهاية.

وفي مكان بعيد ، خلف المحيطات التي عبرتها السفن والحروب والأساطير، ربما كانت هناك راية سوداء قديمة ما تزال ترفرف فوق أمواج مجهولة، بينما يقف رجل وحيد على ظهر سفينة صامتة، ينظر إلى الأفق البعيد، ويتساءل للمرة الأخيرة:

هل خان وطنه ؟ أم أن وطنه هو الذي خانه أولاً ؟

# على خُطى الظلّ الأخير لكابتن كيد

لم تكن السماء فوق لندن يومئذٍ سوى صفحة رمادية مطوية على أسرارها، كأن الغيوم قد عقدت فيما بينها ميثاقاً بألا تسمح لشعاع شمس واحد أن يتسلل إلى المدينة العتيقة. كانت العربات تمرّ تحت النوافذ المرصعة بالمطر، والريح تجرّ خلفها أنين الأزمنة الغابرة، بينما كنت أحدّق عبر الزجاج المرتجف إلى الشوارع التي مشت فوقها أقدام ملوك وبحّارة ولصوص وحالمين، وأتساءل في صمت: كم من الحكايات دفنتها هذه الحجارة دون أن تبوح بها لأحد ؟

أما هي، فكانت تجلس قبالتي في الغرفة الضيقة، وقد انحنت فوق الخرائط والوثائق كما ينحني المؤمن فوق كتاب مقدّس.

لم تكن ترى لندن.لم تكن ترى المطر. ولم تكن ترى الرحلة الطويلة التي استنزفت أعصابنا منذ وطئت أقدامنا المرافئ الباردة. كانت ترى شيئاً واحداً فقط. الكنز. كنز كابتن كيد.

ذلك الاسم الذي أخذ ينمو في خيالها يوماً بعد يوم حتى صار أقرب إلى الكائن الحي منه إلى مجرد أسطورة قديمة.

رفعت رأسها فجأة، وكانت في عينيها تلك اللمعة التي عرفتها جيداً؛ مزيج غريب من العناد والطموح والجوع إلى المجهول.

قالت مغتاظة : أليس لهذا جئنا إلى لندن، ثم شددنا الرحال إلى نيويورك؟ أليس هذا هو السبب الذي جعلنا نهجر الراحة ونطارد الظلال عبر المحيطات ؟

ثم ألقت بالقلم فوق الطاولة كأنها تلقي بتهمة ثقيلة في وجهي، وأضافت : كابتن كيد، أياً تكن شخصيته الحقيقية، مات منذ قرون. مات شنقاً، وشبع موتاً، وتحول إلى عظام وتراب وحكايات يرويها البحارة للأطفال. فلماذا نشغل أنفسنا به أكثر مما ينبغي؟

توقفت لحظة ، ثم انخفض صوتها، وصار أكثر صلابة:

أما الكنز فهو بغيتنا الحقيقية. لا تنس ذلك أبداً. وتذكر جيداً أن لي النصف، ولك ما تبقى.

ابتسمت رغم إرهاقي. لم يكن السبب في ابتسامتي طمعاً في الذهب، ولا سخرية من كلامها، بل لأنني رأيت فيها للمرة الأولى إنسانة تطارد شيئاً أكبر من المال نفسه.

كان الكنز بالنسبة إليها وعداً قديماً بالحياة. نجاة من ماضٍ لم تخبرني عنه كاملاً قط. وانتصاراً متأخراً على زمنٍ بدا وكأنه أمضى عمره كله في هزيمتها.

قلت بهدوء : أتشكين في مصداقية اتفاقاتي ؟

رفعت حاجبها دون أن تجيب.

فأكملت : الكنز مناصفة كما اتفقنا. لم أتراجع عن كلمة قلتها يوماً، ولن أفعل الآن.

ثم أشرت إلى الأوراق المبعثرة أمامنا.

ومن حسن الحظ أنه لم يعد بيننا وبين مكانه إلا جلسة أخيرة مع الليدي دريك.

ساد الصمت. ذلك الصمت الثقيل الذي لا يولد من الفراغ، بل من ازدحام الأفكار.

كانت تحدق إليّ وكأنها تحاول أن تقرأ ما وراء الكلمات. أما أنا فكنت أحاول أن أقرأ ما وراء عينيها. منذ عرفتها وأنا أشعر أن هناك أبواباً كثيرة مغلقة داخل روحها. أبواباً صدئة لا تسمح لأحد بالعبور.

كانت تضحك أحياناً ، لكنها لا تضحك بكل قلبها. وتغضب أحياناً ، لكن غضبها كان يبدو أقدم من الموقف نفسه. حتى صمتها كان يحمل ملامح حزن بعيد لا أعرف مصدره.

قلت أخيراً : أخبريني الحقيقة... هل الكنز يعني لك المال فقط ؟

لم تجب مباشرة.

نهضت من مقعدها واتجهت نحو النافذة. كانت قطرات المطر تنساب فوق الزجاج كما تنساب الذكريات فوق القلب.

قالت دون أن تنظر إليّ : هل تعرف ما أسوأ أنواع الفقر ؟

انتظرت.

قالت : ليس أن تعجز عن شراء الطعام أو الملابس أو الكتب.

التفتت نحوي أخيراً.

أسوأ أنواع الفقر هو أن يعيش الإنسان حياته كلها تحت رحمة الآخرين.

ثم ابتسمت ابتسامة صغيرة خالية من الفرح.

حين كنت صغيرة، كنت أرى الناس يملكون حق الاختيار، بينما كنا نحن نملك حق القبول فقط.

صمتت قليلاً.

كانوا يختارون المدن التي يسافرون إليها ، أما نحن فكنا نختار أي الديون نسدد أولاً.

كنت أصغي إليها دون أن أقاطعها.لأن بعض الكلمات لا تحتاج جواباً، بل تحتاج شاهداً فقط.

قالت : لهذا أريد الكنز.

ثم هزت رأسها.

لا... ليس الكنز ذاته. إنما أريد الشعور الذي يأتي معه. أريد أن أستيقظ ذات صباح دون أن أخاف من الغد. أريد أن أعرف للمرة الأولى كيف يبدو الأمان.

كان في صوتها شيء يشبه التعب القديم. ذلك التعب الذي لا تصنعه الأيام، بل تصنعه السنوات.

قلت بهدوء : كنت أظن أنك تطاردين المغامرة.

ابتسمت.

المغامرة رفاهية يا صديقي. أما الحاجة فهي التي تدفع الناس لعبور المحيطات.

ثم عادت إلى الطاولة وجلست أمام الخرائط من جديد.

أما أنت ؟

نظرت إليها.

لماذا تطارد الكنز ؟

ترددت.

لأن السؤال أصابني في مكان لم أكن مستعداً لفتحه.

كنت طوال الرحلة أتصرف كما لو أن الأمر مجرد بحث تاريخي مثير. كما لو أنني مجرد رجل يحب الألغاز القديمة. لكن الحقيقة كانت أعقد من ذلك بكثير.

قلت أخيراً : لأنني أخشى الفراغ.

نظرت إليّ بدهشة.

فأكملت : بعض الناس يهربون إلى المدن. وبعضهم يهرب إلى الحب. أما أنا فأهرب إلى الأسئلة.

ضحكت بخفوت.

أما أنا فتابعت : حين أكون في مطاردة شيء ما، أشعر أن لحياتي اتجاهاً واضحاً. لكن ما إن أصل إلى النهاية حتى يبدأ الخوف.

خوف ماذا ؟

خوف ألا يكون هناك شيء بعد ذلك.

ساد الصمت مرة أخرى.

ثم قالت : إذاً نحن متشابهان أكثر مما نظن.

ابتسمت.

أنت تهرب من الفراغ، وأنا أهرب من العجز.

وفي الحالتين نحن نركض خلف صندوق دفنه رجل ميت منذ ثلاثة قرون.

ضحكت للمرة الأولى منذ أيام. ضحكت هي أيضاً. وكانت ضحكتها قصيرة لكنها صادقة.

وفي تلك اللحظة شعرت أن المسافة بيننا أصبحت أقل مما كانت عليه.

⊥

في صباح اليوم التالي كانت نيويورك تستقبلنا بضجيجها المعتاد. مدينة لا تمشي. بل تركض. المباني ترتفع كأنها تتحدى السماء نفسها، والناس يتحركون كأن الزمن يطاردهم بالسياط.

تساءلت وأنا أسير في الشارع : كيف انتهى بنا المطاف هنا ؟

من مكتبات لندن المعتمة إلى أرصفة نيويورك الصاخبة. من مخطوطات البحارة إلى خرائط الجزر المنسية. ومن التاريخ إلى الأسطورة.

كانت الليدي دريك تنتظرنا في منزلها القديم المطل على النهر.

امرأة تجاوزت السبعين، لكنها كانت تمتلك نظرة حادة تكفي لإرباك أكثر الرجال ثباتاً.

استقبلتنا بصمت طويل.

ثم قالت : إذن أنتما مصممان على إكمال الطريق.

قالت صديقتي بسرعة : بالتأكيد.

ابتسمت الليدي دريك ابتسامة غامضة.

الغريب أن جميع من بحثوا عن كنز كابتن كيد كانوا يقولون الجملة نفسها.

تبادلت أنا وصديقتي النظرات.

ثم سألتها : وهل وجد أحد منهم شيئاً ؟

هزت رأسها ببطء.

بعضهم وجد الجنون. وبعضهم وجد الموت. والبعض الآخر وجد نفسه فقط.

ثم أضافت : وذلك كان أعظم الكنوز جميعاً.

لم تعجب صديقتي الإجابة. ظهر ذلك واضحاً في ملامحها.

قالت بحدة خفيفة : ونحن نبحث عن الذهب لا عن الحكمة.

ابتسمت العجوز.

جميعهم قالوا ذلك أيضاً.

ثم فتحت صندوقاً خشبياً صغيراً وأخرجت منه ورقة صفراء مهترئة الأطراف. وضعتها أمامنا بحذر.

هذه آخر قطعة من اللغز.

اقتربنا منها في آن واحد. كانت خريطة صغيرة تتوسطها عبارة مكتوبة بخط قديم : ليس الكنز حيث أخفاه كيد، بل حيث أخفى السبب الذي جعله يخفيه.

قطبت صديقتي حاجبيها.

ماذا يعني هذا ؟

قالت الليدي دريك : هذا هو السؤال الذي قضى الباحثون أعمارهم يحاولون الإجابة عنه.

ثم نظرت إلينا بعينين هادئتين.

أخبراني... من كان كابتن كيد في رأيكما ؟

قلت : قرصاناً.

قالت صديقتي : لصاً محظوظاً.

ابتسمت العجوز.

وهنا تكمن المشكلة.

ثم أضافت : ماذا لو لم يكن أياً منهما ؟

ساد الصمت.

قالت : التاريخ لا يكتبه دائماً من عاشوه، بل يكتبه غالباً من انتصروا بعد انتهائه.

كانت كلماتها تتحرك ببطء داخل عقلي. كأنها تبحث عن مكان تستقر فيه.

أما صديقتي فقد قالت بضيق : مع احترامي لكل هذا، أين الكنز ؟

ضحكت الليدي دريك للمرة الأولى.

ها هو السؤال الحقيقي أخيراً.

ثم أشارت إلى الخريطة.

الكنز يبدأ من هنا.

لكن الوصول إليه يبدأ من هنا.

وضعت إصبعها فوق صدورنا.

شعرت صديقتي بالضجر. أما أنا فشعرت بالخوف. لأنني أدركت فجأة أن الرحلة لم تكن بحثاً عن الذهب وحده. بل عن شيء آخر لم أستطع تسميته بعد. شيء كان يختبئ داخلنا طوال الوقت. شيء يشبه الحقيقة. والحقيقة، كما تعلمت عبر السنين، أثقل كثيراً من صناديق الذهب.

خرجنا من منزل الليدي دريك مع غروب الشمس. كانت المدينة تشتعل بأضواء المساء.

أما نحن فكنا نسير بصمت.

بعد دقائق قالت صديقتي : هل تعتقد أنها كانت تعبث بنا ؟

فكرت قليلاً.

ثم قلت : لا أعرف.

وأنا أيضاً لا أعرف.

ثم تنهدت.

لكنني أعرف شيئاً واحداً.

نظرت إليها.

قالت : لقد وصلنا إلى هذا الحد. ولن أعود الآن.

ابتسمت.

حتى لو اضطررت إلى مطاردة شبح كابتن كيد نفسه.

نظرت إلى الأفق البعيد حيث كانت الأضواء ترتجف فوق صفحة الماء.

وقلت في نفسي : ربما كنا بالفعل نطارد شبحاً. لكن الأشباح ليست دائماً أرواح الموتى. أحياناً تكون أحلامنا القديمة. وأحياناً تكون مخاوفنا. وأحياناً تكون النسخ التي كنا نريد أن نصبحها ولم نستطع.

أما الكنز... فلم أعد متأكداً إن كان مدفوناً في جزيرة بعيدة تحت الرمل والصخور. أو مدفوناً في أماكن أعمق كثيراً. في القلب. في الذاكرة.

وفي ذلك الجزء الصامت من الروح الذي يظل ينتظر طوال العمر شيئاً واحداً فقط... أن يعثر عليه أحد.

# وليم كيد
# الرجل الذي وقف بين شرف البحر وظلال المشنقة

كان البحر ، منذ عرفه البشر ، مرآةً غريبة للروح الإنسانية؛ يمنح الرجال المجد كما يمنحهم الهلاك، ويهبهم الثروة كما يبتلع أسماءهم في عتمة الأعماق. وعلى مياهه اللامتناهية، كانت السمعة أثمن من الذهب، والكلمة أغلى من الحمولة التي تملأ عنابر السفن.

وفي أواخر القرن السابع عشر ، لم يكن اسم وليم كيد يُذكر في موانئ الأطلسي إلا مقروناً بالاحترام والثقة.

كان تاجراً مرموقاً ، مالكاً لسفن تمخر عباب المحيط بين نيويورك ولندن ، رجلاً تعرفه الأرصفة الخشبية كما تعرفه المجالس الراقية، وتعرفه دفاتر التجارة كما تعرفه موائد النبلاء. اختار نيويورك موطناً لإقامته مع أسرته الثرية، ووجد في المدينة الناشئة وعداً بمستقبل يليق بطموحه واتساع رؤيته.

كان الناس يصفونه بالرجل الهادئ، المتزن ، قليل الكلام ، كثير التأمل. و حين يدخل مجلساً، لا يرفع صوته ليُسمع، بل يصمت الآخرون ليصغوا.

فكيف انتهى ذلك الرجل نفسه معلقاً على حبل المشنقة ، متأرجحاً فوق مياه نهر التايمز، متهماً بالقرصنة والقتل وإخفاء أعظم كنز عرفته البحار ؟ كيف تحول التاجر المحترم إلى وحش بحري يطارده القانون البريطاني ؟ وهل تحول حقاً ؟ أم أن التاريخ، مثل البحر، يخفي في أعماقه أكثر مما يكشفه لسطحه ؟

⊥

إنها قصة يصعب تصديقها.

فالإنسان لا يتحول من النقيض إلى النقيض في ليلة واحدة، ولا يستيقظ الرجل الشريف صباحاً ليقرر أن يصبح قاطع طرق في المساء.

لهذا السبب تحديداً انقسم الناس حول قضية وليم كيد.

فالرجل لم يكن مغامراً مجهولاً ظهر من ظلمات الأرصفة ، بل كان عضواً محترماً في الغرفة التجارية البحرية ، في كل من لندن ونيويورك، وصديقاً مقرباً من حاكم نيويورك الجنرال بلمونت، ورجلاً يرتاد بيوت النخبة البريطانية ويصافح أصحاب القرار في الإمبراطورية.

بل إن الأعجب من ذلك كله، أنه كان يحمل تفويضاً رسمياً موقعاً باسم الملك وليم الثالث نفسه، وممهوراً بأختام البحرية الملكية البريطانية.

لم يكن مطلوباً منه أن يصبح قرصاناً. بل كان مطلوباً منه أن يطارد القراصنة.

وكانت مهمته واضحة وصريحة :

تعقب اللصوص الذين يعيثون فساداً في المحيطين الأطلسي والهندي، واستعادة هيبة التاج البريطاني فوق المياه البعيدة.

فكيف تحول الصياد إلى فريسة ؟ وكيف أصبح الرجل الذي أُرسل للقضاء على القراصنة أشهر قرصان في زمانه ؟

⊥

في أحد أيام عام 1701، كانت السماء الرمادية تغطي لندن بضبابها المعتاد. وكانت النوافذ العالية في منزل ليدي دريك تسمح بخيوط ضوء شاحب بالتسلل إلى القاعة الواسعة.

جلست السيدة الإنجليزية الوقورة قرب المدفأة ، بينما كانت ألسنة النار تتراقص فوق الحطب ، وكأنها تستعيد قصص البحارة الذين ابتلعتهم العواصف.

كانت ليدي دريك أمينةً لقلعة ورشيب ، الحصن الذي احتفظت فيه بريطانيا بأسرارها البحرية ووثائقها الأكثر حساسية. امرأة تجاوزت الستين، لكن عينيها ظلتا تحتفظان بذلك البريق الذي لا يمنحه العمر إلا لمن عاشوا قرب أسرار السلطة.

وضعت نظارتها جانباً ، وتأملت الحاضرين للحظة طويلة قبل أن تقول بهدوء : هذه هي المشكلة يا أصدقائي.

ساد الصمت.

تابعت وهي تنظر إلى ألسنة النار :

لقد قلتما منذ لحظات إن من المستحيل أن يتحول رجل رقيق الطباع، هادئ السلوك، محترم السمعة، إلى قرصان يقطع الرقاب ويحرق السفن خلال بضعة أشهر فقط.

قال أحد الجالسين : وهل تخالفين ذلك الرأي يا ليدي دريك ؟

ابتسمت ابتسامة صغيرة.

ثم قالت : نا لا أخالفه... بل أراه منطقياً للغاية.

تبادل الحضور النظرات.

قال الرجل الآخر : إذن فأنت ترجحين أن البحرية البريطانية لفقت التهمة له ؟

رفعت رأسها ببطء.

دعوا اعتقادي الشخصي جانباً، ولننظر إلى الوقائع فقط.

سكتت لحظة.

ثم أضافت : الوقائع وحدها هي التي جعلت الإنجليز يتخلون عنه.

وقفت واتجهت نحو النافذة.

في الخارج كان الضباب يبتلع أبراج لندن.

قالت بصوت خافت : حين عاد وليم كيد من رحلته الطويلة، لم يعد الرجل نفسه الذي غادر الميناء.

ثم استدارت نحو الحاضرين.

أو هكذا بدا للناس.

⊥

في الحقيقة ، كان وليم كيد قد بدأ رحلته مثقلاً بما لم يعرفه أحد. فالحرب تستهلك المال. والبحر يلتهم الثروات. والتاج البريطاني كان يريد القضاء على القراصنة بأقل تكلفة ممكنة.

لهذا جرى تمويل حملته بطريقة خاصة ، شارك فيها رجال سياسة وأصحاب نفوذ ومستثمرون كبار.

كان النجاح يعني ثروات هائلة للجميع. أما الفشل... فكان يعني البحث عن مذنب واحد.

مذنب واحد فقط يتحمل كل شيء. وكان ذلك المذنب يحمل اسماً واحداً : وليم كيد.

⊥

في الليالي الطويلة فوق سطح السفينة، كان يقف وحيداً أمام المحيط. يراقب النجوم. ويستمع إلى صرير الأخشاب تحت أقدام البحارة.

كان يشعر بثقل المهمة فوق كتفيه.

قال لنفسه ذات ليلة : كم هو غريب هذا البحر.

ظل ينظر إلى الظلام الممتد أمامه.

يطلبون مني مطاردة القراصنة ، لكنهم يمنحونني صلاحيات القراصنة أنفسهم.

صمت.

ثم أكمل في داخله : وأين ينتهي القانون وتبدأ الجريمة ؟

لم يجد جواباً.

فالحدود فوق اليابسة واضحة. أما في البحر... فكل شيء يذوب. الأعلام تتبدل. والولاءات تتغير. والحقيقة نفسها تصبح ضباباً.

⊥

بدأت الضغوط تتزايد. الرحلة طويلة. التموين يتناقص. الطاقم يطالب بالغنائم. البحارة لا يقاتلون من أجل المبادئ. بل من أجل نصيبهم من الذهب. وكانت الهمسات تنتشر في السفينة.

إلى متى نطارد الأشباح ؟ أين القراصنة الذين وعدونا بهم ؟ هل سنعود فقراء كما خرجنا ؟

وكان وليم كيد يسمع كل شيء. وفي كل ليلة كان يسأل نفسه السؤال ذاته : هل أخون أوامري إذا صادرت سفينة مشبوهة ؟

ثم يأتيه صوت آخر من أعماقه : وماذا لو كانت تلك السفينة بريئة ؟

ثم يعود الصوت الأول : وماذا لو كانت مذنبة وتركتها تهرب؟

كان الصراع يأكله ببطء. ليس صراعاً بين الخير والشر. بل بين شرين مختلفين.

⊥

وحين وقعت الحادثة التي ستغير حياته إلى الأبد ، لم يدرك أحد أنها ستكون بداية النهاية.

كان الغضب يسيطر على الطاقم. والتوتر يملأ السفينة. ووقع شجار عنيف بين القبطان وأحد رجاله.

لحظة واحدة فقط. ضربة واحدة. صرخة قصيرة. ثم صمت. سقط الرجل ميتاً.

ظل وليم كيد ينظر إلى الجسد طويلاً.

لم يكن ينظر إلى البحار الميت. بل كان ينظر إلى شيء آخر. كان يرى مستقبله كله يسقط أمامه.

قال في نفسه : انتهى الأمر.

كان يعرف أن البحر يغفر أشياء كثيرة. لكن السياسة لا تغفر شيئاً.

⊥

عندما عاد إلى المستعمرات البريطانية، لم يجد الأصدقاء الذين تركهم. وجد رجالاً خائفين. كان اسمه قد أصبح عبئاً. وأصبح الاقتراب منه خطراً. حتى أولئك الذين شاركوا في تمويل رحلته بدأوا ينكرون معرفتهم به. وكانت تلك هي الضربة التي لم يستطع احتمالها. الخيانة لا تأتي من الأعداء. بل من الذين يجلسون إلى جوارك على المائدة نفسها.

⊥

جلس ذات ليلة وحيداً في حجرته. أمام الشمعة الصغيرة. وأخرج الوثائق الملكية التي حملها معه طوال الرحلة. تأمل توقيع الملك. وتأمل الأختام الرسمية.

ثم ابتسم ابتسامة حزينة.

وقال : كم تبدو الأوراق قوية فوق الطاولات...

ورفع نظره نحو النافذة.

.وكم تصبح ضعيفة أمام الخوف.

ظل صامتاً.

ثم قال بصوت بالكاد سمعه هو نفسه : لقد أرسلوني إلى البحر بطلاً...

وأغمض عينيه.

.ويعيدونني منه قرصاناً.

⊥

وفي صباح بارد من أيام لندن، تجمع الناس قرب الرصيف رقم سبعة. كانت الوجوه كثيرة. والهمسات أكثر. وقف وليم كيد تحت المشنقة. لم يكن يبكي. ولم يكن يصرخ.

كان هادئاً على نحو غريب. كأن الرجل الذي واجه المحيطات كلها لم يعد يخشى حبلاً يتدلى من عارضة خشبية.

نظر إلى النهر.

وربما تذكر لحظتها رحلاته القديمة. ورائحة الموانئ البعيدة. وصوت زوجته. وضحكات أطفاله. وربما تذكر نيويورك. المدينة التي أحبها أكثر مما أحب لندن.

ثم رفع رأسه نحو السماء الرمادية.

ولم يعرف أحد بماذا كان يفكر في تلك اللحظة الأخيرة.

هل كان غاضباً ؟ هل كان نادماً ؟ هل كان يشعر بالظلم ؟ أم كان يدرك أن التاريخ لا يكتبه الأبرياء دائماً، بل يكتبه المنتصرون ؟

⊥

عادت ليدي دريك إلى مقعدها قرب المدفأة.

وساد الصمت في القاعة.

قال أحد الحاضرين أخيراً : وهل كان بريئاً ؟

نظرت إلى النار طويلاً.

ثم قالت : لا أعلم.
سكتت قليلاً.
وأضافت : لكنني أعلم شيئاً واحداً.
رفع الجميع أبصارهم نحوها.
فقالت : البحر يستطيع أن يبتلع السفن بسهولة...
ثم رفعت عينيها ببطء.
.أما الحقيقة، فإنها تغرق أحياناً إلى الأبد.

# الكابتن الذي عاد إلى المشنقة
# لغز وليم كيد بين التاجر والقرصان

كان المساء يهبط على لندن ببطء يشبه نزول ستارة ثقيلة على مسرح أنهكته المآسي. وكانت الغيوم الرمادية تتجمع فوق نهر التايمز كما لو أنها تعرف أن المدينة تستعد لاستقبال رجل يحمل معه أكثر من حقيبة سفر، وأكثر من سر.

في ذلك المساء ، كان اسم وليم كيد يسبق صاحبه إلى الأرصفة والحانات ومجالس النبلاء ومكاتب الأدميرالية.

عاد الكابتن. عاد الرجل الذي خرج قبل سنوات بأمر ملكي لمطاردة القراصنة في المحيطات البعيدة. لكنه عاد هذه المرة متهماً بأنه صار واحداً منهم.

وكان السؤال الذي يتردد في كل مكان كصدى لا يجد جواباً :

كيف يعود قرصان إلى لندن بإرادته ؟ كيف يضع رأسه بنفسه في حبل المشنقة ؟

كانت ليدي دريك تقف قرب النافذة ، تحدق في المطر الذي أخذ يطرق الزجاج بأصابعه الباردة، ثم التفتت إلى الحاضرين وقالت بهدوء يشبه هدوء القضاة قبل النطق بالأحكام :

إذا كان وليم كيد قد احترف القرصنة حقاً كما يقولون، فلماذا عاد إلى لندن وهو يعلم أن الموت شنقاً ينتظره عند أول خطوة يضعها على الميناء ؟

ساد الصمت.

ثم تابعت بصوت أكثر عمقاً : ذلك وحده يكفي كي يجعلني أؤمن بأن الحقيقة لم تُرو بعد، وأن الرجل الذي عاد إلى لندن لم يكن الرجل الذي ارتكب تلك الجرائم.

اقتربت من المدفأة ، ومدت يديها نحو النار كأنها تبحث بين ألسنتها عن كلمات ضائعة.

أنا مقتنعة بأن شخصاً آخر استعار اسم وليم كيد ، وانتحل شخصيته ، وأبحر تحت رايته ، بينما ظل وليم كيد الحقيقي يظن أنه يؤدي واجبه تجاه التاج البريطاني.

رفعت رأسها نحو السقف وكأنها تحدث التاريخ نفسه :

نحن أمام رجلين لا رجلاً واحداً... وليم كيد التاجر المحترم ، ووليم كيد القرصان الآثم.

كانت الكلمات ثقيلة. ثقيلة إلى درجة أن أحد الجالسين لم يجد ما يقوله.

لكن ليدي دريك تابعت : هذا ما أكده كيد نفسه، وهذا ما أكده بعض البحارة الذين عادوا معه إلى لندن في ظروف تثير من الأسئلة أكثر مما تقدم من الأجوبة.

سأل أحد الحاضرين : وهل عاد على متن السفينة نفسها التي خرج بها بتكليف ملكي ؟

هزت رأسها بالنفي.

كلا.

ثم أضافت : لقد خرج على متن السفينة جالي المغامرة، وعاد على متن سفينة أخرى تدعى أدفيس.

ساد الصمت مجدداً.

كان الجميع يعرف معنى أن يفقد قائد بحري سفينته الملكية. بل كان الجميع يعرف أن ضياع السفينة أحياناً أخطر من ضياع الرجال أنفسهم.

⊥

في صباح رمادي من أيام لندن الباردة، وقف وليم كيد داخل قاعة التحقيق التابعة للأدميرالية البريطانية. كانت الجدران الحجرية العتيقة تضغط على الأنفاس. وكانت النوافذ العالية تسمح بدخول ضوء شاحب جعل الوجوه تبدو كأنها منحوتة من الرخام.

جلس أمامه الأدميرال وارين سويرز ، وإلى جانبه عدد من الضباط والكتبة.

أما كيد فكان واقفاً. لم يطلب الجلوس. ولم يكن يبدو كرجل منكسر. كان يبدو كرجل يشعر بأنه تعرض لخيانة لا يفهمها.

قال أحد المحققين: هل عدت على متن السفينة جالي المغامرة يا كابتن ؟

أجاب : كلا.

وأين هي الآن ؟

نظر إليهم بدهشة حقيقية. دهشة رجل يعتقد أن السؤال نفسه غير منطقي.

ثم قال بغضب : ماذا ؟ أتزعمون أنكم لا تعرفون ؟

رفع الأدميرال رأسه ببطء.

نعرف ماذا يا كابتن ؟

اتسعت عينا كيد. للحظة شعر أن الأرض تميل تحت قدميه.

هل يمثلون ؟ أم أنهم حقاً لا يعلمون ؟

قال بصوت متوتر : ألست أنت المسؤول عن الأسطول البريطاني في المحيط الهندي؟ كيف إذن لا تعرف ما فعله رجالك هناك؟

أجاب الأدميرال بهدوء : اهدأ يا كابتن كيد، وأخبرنا بما حدث بالتفصيل.

ضرب كيد الطاولة بقبضته.

بحق السماء، لا تقل لي إنكم لا تعرفون ! هل تجلسون هنا للتحقيق معي في أخطاء ارتكبها ضباطكم ؟

ازدادت أنفاسه سرعة.

كنت أحمل أمراً ملكياً موقعاً ومختوماً من صاحب الجلالة. خرجت لأطارد القراصنة لا لأصبح واحداً منهم.

توقف قليلاً.

ثم قال بصوت خافت لكنه أكثر ألماً : كنت أتوقع استقبالاً مختلفاً... كنت أتوقع اعتذاراً.

رفع رأسه نحو الأدميرال.

أما هذا... فهذا أشبه بمحاكمة.

قال الأدميرال : لدينا ثلاثة أسئلة يا كابتن.

رفع ثلاثة أصابع أمامه.

أولاً : كيف فقدت السفينة جالي المغامرة ؟

ثانياً : ماذا حدث لطاقمها ؟

ثالثاً: لماذا عدت على متن سفينة أخرى بعد أن اختفى معظم ضباطك في ظروف غامضة ؟

حدق كيد في الوجوه المحيطة به. وجوه جامدة. باردة. وجوه لا تعرفه. أو ربما لا تريد أن تعرفه.

قال ببطء : لا أصدق أنكم لم تتلقوا رسائلي.

رفع أحد الكتبة رأسه.

أي رسائل ؟

قال كيد : كنت أرسل تقارير منتظمة إلى لندن. كتبت عن كل شيء. عن التمردات، وعن الأمراض، وعن المعارك، وعن السفن التي اعترضتنا.

صمت قليلاً.

ثم أضاف : كتبت عن كل قرار اتخذته.

قال الأدميرال : لم تصلنا رسالة واحدة.

شعر كيد بشيء بارد يمر في صدره. شيء يشبه الخوف. الخوف الحقيقي. ليس خوف البحار من العاصفة. ولا خوف الجندي من المدافع. بل خوف الإنسان حين يدرك فجأة أن العالم الذي كان يقف عليه بدأ يختفي تحت قدميه.

فكر في نفسه : هل ضاعت الرسائل ؟ هل سُرقت ؟ أم أن أحداً تعمد ألا تصل ؟

بدأت الأسئلة تتكاثر في رأسه مثل أمواج هائجة.

من المستفيد ؟ ومن الذي كان يريد عزله عن لندن ؟ ومن الذي كان يكتب نهايته بينما كان هو يظن أنه يكتب تقاريره العسكرية ؟

قطع الأدميرال أفكاره قائلاً : كل ما وصلنا عنك كان شائعات.

رفع كيد رأسه.

أي شائعات ؟

أنك تخليت عن مبادئ بريطانيا العظمى. وأنك تحولت إلى قرصان.

ضحك كيد. لكن ضحكته كانت أقرب إلى الانكسار منها إلى السخرية.

أنا ؟ قرصان ؟

نظر إلى يديه. هاتان اليدان اللتان حملتا أوامر الملك. هاتان اليدان اللتان صافحتا ضباط البحرية الملكية. كيف أصبحتا فجأة يدي لص ؟

تمتم في داخله : كيف يمكن للحقيقة أن تموت بهذه السهولة ؟ كيف يمكن للأكاذيب أن تبحر أسرع من السفن ؟

قال الأدميرال : نود سماع دفاعك دون انفعالات.

أجاب كيد بمرارة : تريدون دفاعي ؟

ثم اقترب من الطاولة.

حسناً.

ساد الصمت في القاعة.

قال : حين غادرت لندن كنت أؤمن أنني أخدم بلادي. وحين وصلت إلى المحيط الهندي بدأت المشاكل. الأمراض حصدت الرجال. الرياح خانتنا. المؤن نفدت. والقراصنة الذين خرجنا لمطاردتهم كانوا يعرفون تحركاتنا قبل أن نعرف نحن وجهتنا.

رفع رأسه ببطء.

بدأت أشعر أن أحداً ما يراقبنا. أن أحداً ما كان يسبقنا دائماً بخطوة.

تبادل الضباط النظرات.

أما كيد فتابع : ثم جاءت الضربة الكبرى.

جالي المغامرة بدأت تموت.

أغلق عينيه للحظة. وعاد يرى المشهد أمامه. الأخشاب المتآكلة. المياه المتسربة. الرجال المنهكون. الرائحة الثقيلة للبحر والرطوبة والموت.

قال بصوت خافت : كانت سفينة تحتضر. ولم يكن أمامي خيار إما أن أغرق معها أنا وطاقمي... وإما أن أتركها.

سأل أحد الضباط : فتركتها ؟

أجاب : أنقذت الرجال الذين استطعت إنقاذهم. واشتريت أدفيس. لأن مهمتي لم تنته.

نظر إلى الأدميرال مباشرة.

كنت أظن أن الوطن ينتظر عودتي.

ابتسم ابتسامة حزينة.

لكن يبدو أن الوطن كان ينتظر شيئاً آخر.

شعر للحظة بأنه متعب. متعب إلى درجة لم يعرفها طوال حياته البحرية.

في البحر كان العدو واضحاً. العاصفة عاصفة. والرصاصة رصاصة. أما هنا... في لندن... فالأعداء يرتدون الثياب الرسمية. والطعنة تأتي من الأوراق المختومة.

قال الأدميرال : هناك شهادات تؤكد مهاجمتك لسفن تجارية.

أجاب كيد : وكانت تحمل أعلاماً معادية. أو هكذا أخبرني رجالي.

صمت.

ثم همس : أو هكذا أردت أن أصدق.

للمرة الأولى بدا الشك في عينيه. هل خُدع فعلاً ؟ هل استُخدم ؟ هل كان مجرد قطعة صغيرة في لعبة أكبر منه ؟

راح يفتش في ذاكرته. وجوه الضباط. الخرائط. الأوامر. الرسائل المفقودة. السفن التي اختفت. الرجال الذين تمردوا.

كل شيء صار فجأة قابلاً لتفسير آخر. شعر كأنه يعيش حياته للمرة الثانية. لكن هذه المرة من مقعد المتهم.

قال الأدميرال : إذن فأنت تنكر تهمة القرصنة ؟

رفع كيد رأسه. وكان في عينيه شيء يشبه بقايا العناد الأخير.

قال : أنكر أنني خرجت قرصاناً. وأنكر أنني عدت قرصاناً.

ثم أضاف : لكنني لا أعرف ماذا حدث بين الرحلتين.

ساد الصمت.

كان ذلك الاعتراف أغرب من الإنكار.

قال كيد : ربما سرق أحدهم اسمي. وربما سرق أحدهم سمعتي. لكن الشيء الوحيد الذي لم أسمح لأحد بسرقته هو ضميري.

وقف الحراس استعداداً لاقتاده خارج القاعة.

وقبل أن يغادر التفت نحو الأدميرال.

وقال : إذا كنت قرصاناً حقاً...

ثم ابتسم ابتسامة مريرة.

فلماذا عدت؟

لم يجب أحد.

لأن السؤال كان أكبر من القاعة. وأكبر من المحكمة. وربما أكبر من التاريخ نفسه.

خرج وليم كيد من القاعة ببطء.

وفي الخارج كانت لندن تبتلع خطواته تحت المطر.

أما المشنقة التي كانت تنتظره في الأفق، فقد بدت له أقل قسوة من فكرة واحدة فقط :

أن يموت الإنسان وهو لا يعرف إن كان ضحية خيانته للآخرين... أم ضحية خيانة الآخرين له.

وهكذا بقي السؤال معلقاً فوق صفحات التاريخ، يتأرجح كما تتأرجح السفن فوق الأمواج :

هل كان وليم كيد قرصاناً عاد لينال جزاءه ؟ أم كان رجلاً عاد إلى وطنه ليكتشف أن الوطن نفسه لم يعد يعرفه ؟

وربما... لن يعرف أحد الحقيقة كاملة أبداً.

# بين رايتين بريطانيتين

## المدافع التي وُجِّهت إلى الصدر الخطأ

قال الكابتن كيد : حين غادرت لندن ، كانت السماء في ذلك الصباح الرمادي تشبه صفحة معدن بارد ، وكانت الأبراج الحجرية للميناء تتراجع خلفي شيئًا فشيئًا كأنها أطلال حلم قديم يغرق في الضباب. وقفت على ظهر سفينتي جالي أتأمل الشواطئ الإنجليزية وهي تذوب في الأفق، ولم أكن أعلم أن العدو الذي سأخشاه يومًا لن يرفع راية سوداء، ولن يتحدث بلسان غريب، بل سيرفع الراية نفسها التي أقسمت على خدمتها.

كان البحر آنذاك مفتوحًا كقدرٍ مجهول.

المحيط الهندي لم يكن مجرد مياه واسعة ، بل كان عالمًا كاملًا من المطامع والإمبراطوريات والخوف. هناك ، كانت السفن التجارية تبحر محملة بثروات الشرق، وكانت القراصنة تدور حولها كالذئاب حول قافلة ضائعة في الصحراء.

خلال الأشهر الثلاثة الأولى من رحلتي ، حققت نجاحات لم أكن أحلم بها حين غادرت إنجلترا.

أغرقت سفنًا اشتهرت بالرعب والنهب ، وحررت رجالًا ونساءً قضوا شهورًا طويلة في ظلمات الأسر ، ونقلت إلى سفينتي ما استعادته مدافعنا من بضائع مسروقة وأموال منهوبة لتعود إلى أصحابها أو إلى خزائن التاج البريطاني.

كنت أرى في كل انتصار تأكيدًا على صحة اختياري. كنت أؤمن أن البحر ، رغم قسوته ، لا يزال يحتفظ بقانون خفي يميز بين اللص والحارس، بين القرصان والجندي. لكن البحر نفسه كان يبتسم أحيانًا قبل أن يطعن.

في صباح قائظ قرب ميناء طاليكوت، كانت الشمس معلقة فوق الماء كقرص من النحاس المصهور، والريح ساكنة على نحو يثير القلق.

وفجأة صرخ المراقب من أعلى الصارية :

سفينة حربية في الأفق !

رفعت المنظار نحو الاتجاه الذي أشار إليه.

كانت سفينة ضخمة تشق المياه بثقة ، تعلوها الراية البريطانية ترفرف فوق الصاري الكبير.

تنفست الصعداء.

قلت في نفسي : إذن فالأمر يتعلق برسالة جديدة من لندن، أو ربما أوامر إضافية بشأن المهمة.

لم يخطر ببالي لحظة أن الراية الواحدة قد تخفي إرادتين متصارعتين.

اقتربت السفينة حتى صارت مدافعها واضحة للعين المجردة. ثم وصل القارب الذي يحمل أمر الاستدعاء.

كان مختصرًا وجافًا : الكابتن أندرو ماسون يطلب حضور الكابتن كيد فورًا.

انتقلت إلى سفينته برفقة ضابطين من رجالي.

منذ اللحظة الأولى شعرت بشيء غير مريح. الوجوه متجهمة. الجنود ينظرون إلينا كما ينظر الحراس إلى السجناء. حتى الهواء بدا أثقل من المعتاد.

استقبلني الكابتن أندرو ماسون داخل مقصورته. كان رجلًا طويل القامة، حاد القسمات، يملك عينين باردتين تشبهان لون الفولاذ في الشتاء.

لم يدعني أجلس. لم يبادلني المجاملة المعتادة بين ضباط البحرية البريطانية. بل قال مباشرة، بصوت خالٍ من أي دفء :

لدي أوامر من الأدميرالية البريطانية بالاستيلاء على نصف ما على سفينتك من مدافع وذخائر، كما تقضي الأوامر بإلحاق نصف رجالك المدربين بالأسطول البريطاني العامل في المحيط الهندي.

ظننت لوهلة أنني أسأت السمع. حدقت فيه غير مصدق.

قلت :

أي أوامر هذه يا كابتن ماسون ؟ إنني مكلف بمهمة خاصة ومباشرة من...

قاطعني بعنف : نعرف تمامًا طبيعة مهمتك يا كابتن كيد، ولسنا بحاجة إلى شرح جديد. الأوامر الأخيرة هي التي ذكرتها لك الآن.

ساد الصمت للحظات.

سمعت خلالها صوت الحبال وهي تضرب الصارية خارج المقصورة، وصرير الخشب تحت وقع الأمواج.

لكن الضجيج الحقيقي كان داخل رأسي.

نصف المدافع ؟ نصف الرجال ؟ هذا ليس دعمًا للأسطول. هذا تفكيك لسفينتي.

قلت ببطء وأنا أحاول السيطرة على غضبي:

إن تجريدي من نصف مدافعي ونصف أفراد طاقمي يعني عجزي الكامل عن إتمام المهمة التي كلفني بها جلالة الملك.

ثم رفعت بصري نحوه وأضفت : ولهذا أرفض تنفيذ هذه الطلبات.

رأيته يضم شفتيه في برود.

ثم قال : هذا يعني أنني سأنفذها بالقوة.

شعرت كأن أحدهم سحب الهواء من المقصورة.

نظرت إليه طويلًا. هل قالها حقًا ؟ هل وصلت الأمور إلى هذا الحد ؟

قلت : بحق السماء... أي منطق في هذا ؟ أتريد حقًا أن تتقاتل سفينتان بريطانيتان بينما القراصنة والفرنسيون يراقبون المشهد ويضحكون ؟

لم تتغير ملامحه.

قال بنفس البرود : الأوامر هي الأوامر. لا تضطرني إلى استخدام القوة لتنفيذها.

تأملت وجهه. لم أجد فيه شكًا أو ترددًا.

كان الرجل مستعدًا فعلًا لإطلاق النار على سفينة بريطانية تحمل أوامر ملكية.

في تلك اللحظة أدركت شيئًا مرعبًا. البحر لا تحكمه المدافع وحدها. السياسة أيضًا تبحر فوق أمواجه.

سألت بهدوء : ومن الذي أصدر هذه الأوامر تحديدًا ؟

تردد قليلًا ثم قال : الأدميرالية.

ابتسمت ابتسامة قصيرة بلا فرح.

الأدميرالية.

ذلك الاسم العظيم الذي تختبئ خلفه أحيانًا الطموحات الشخصية والمؤامرات الصغيرة والغيرة الكبيرة.

قلت : هل تحمل نسخة مكتوبة ؟

أخرج ورقة مختومة ووضعها أمامي.

قرأت الكلمات مرة تلو الأخرى. الختم صحيح. التوقيع صحيح. لكن شيئًا ما كان خطأ. شيئًا لا تراه العين، بل يشعر به المرء كما يشعر البحار بتغير الريح قبل العاصفة.

رفعت رأسي نحوه.

قلت : أخبرني يا ماسون... هل تصدق حقًا أن هذه الأوامر تخدم التاج ؟

لم يجب مباشرة. نظر إلى النافذة.

ثم قال : أنا لا أتقاضى راتبي مقابل التفكير في الأوامر، بل مقابل تنفيذها.

ضحكت ضحكة قصيرة مريرة.

قلت : هنا يكمن الفرق بيننا إذن.

رفع حاجبيه.

تابعت : الجندي الذي يتوقف عن التفكير يتحول إلى مدفع آخر... والمدافع لا تميز دائمًا بين العدو والصديق.

ارتسم الغضب على وجهه.

قال : كن حذرًا فيما تقول.

أجبته : وأنا أطلب منك الشيء نفسه.

ساد الصمت من جديد. كان الصمت هذه المرة أثقل من المدافع نفسها.

خارج المقصورة كانت السفينتان تتمايلان فوق الماء كأنهما ملاكمان يستعدان للجولة الأولى.

تخيلت المشهد لو اندلع القتال. مدافع بريطانية تطلق النار على مدافع بريطانية. أخشاب تحمل الشعار نفسه تتحطم بالنيران نفسها. رجال يهتفون باسم الملك وهم يقتلون رجالًا يهتفون باسم الملك نفسه.

أي عبث هذا ؟ أي جنون ؟

شعرت لأول مرة منذ سنوات بأنني متعب. متعب من البحر. ومتعب من السياسة. ومتعب من الحقيقة القاسية التي تقول إن الإنسان قد ينجو من القراصنة، لكنه لا ينجو دائمًا من أصحاب المكاتب المختومة بالشمع الأحمر.

قال ماسون أخيرًا : لديك ساعة واحدة لاتخاذ قرارك.

ثم أضاف : بعدها سأعتبر رفضك تمردًا على أوامر الأدميرالية.

خرجت من المقصورة دون أن أجيبه. كانت الشمس قد بدأت تميل نحو الغرب. السماء حمراء كأنها تستعد مسبقًا للدم.

حين عدت إلى جالي ، كان الضباط ينتظرونني بوجوه قلقة.

اقترب مني الضابط هاريس وسأل : هل هناك مشكلة يا سيدي ؟

نظرت إلى رجالي. رجال قاتلوا معي. نجوا معي. دفنوا أصدقاءهم في البحر معي.

كيف أخبرهم أن الخطر هذه المرة يرتدي زيًا بريطانيًا ؟

قلت أخيرًا : يريدون نصف السفينة.

ساد الصمت.

ثم قال هاريس : وهل سنقاتل ؟

كان السؤال بسيطًا. لكن الإجابة كانت أثقل من جبل.

نظرت إلى المدافع المصطفة على الجانبين. كم مرة أنقذت حياتنا ؟ كم مرة صنعت النصر ؟ هل ستوجه الآن نحو أبناء وطننا ؟

قلت ببطء : لا أعرف.

في تلك الليلة لم أنم. جلست وحدي في المقصورة.

المصباح الزيتي يتأرجح مع حركة الأمواج ، والخرائط مبسوطة أمامي فوق الطاولة. لكنني لم أر الخرائط.

كنت أرى وجوه الرجال. وجوه القتلى الذين سيسقطون إن بدأت الحرب بين السفينتين.

سألت نفسي : ما هو الواجب ؟ هل الواجب أن أطيع الأمر مهما كان أحمق ؟ أم أن الواجب الحقيقي هو حماية المهمة التي أوكلت إلي ؟ وأي خيانة أكبر ؟ أن أرفض أوامر الأدميرالية ؟ أم أن أقبل بأمر يجعلني أفشل في خدمة الملك ؟

للمرة الأولى منذ سنوات طويلة شعرت أن البوصلة التي بداخلي قد تعطلت. كنت أعرف اتجاه الشمال دائمًا. أما الآن فقد كانت الجهات الأربع تتشابه.

وقفت عند النافذة. كان البحر مظلمًا وهادئًا. هادئًا أكثر مما ينبغي.

قال لي أحد البحارة القدامى يومًا : احذر البحر حين يصمت طويلًا، فهو غالبًا يفكر في طريقة جديدة للقتل.

ابتسمت وأنا أتذكر عبارته.

ثم همست لنفسي : وربما يجب أن نحذر البشر أيضًا حين يلتزمون الصمت طويلًا.

مع اقتراب الفجر، كنت قد اتخذت قراري.

لكن حتى اليوم، وبعد مرور أعوام طويلة، لا أزال أتساءل :

هل كان ذلك القرار شجاعة ؟ أم كان بداية السقوط ؟

البحر وحده يعرف الإجابة. والبحر... لا يتكلم أبدًا.

# الكابتن كيد أمام محكمة الإمبراطورية
# اعترافات رجل يطارده البحر

ساد الصمت في قاعة التحقيق الثقيلة كأن الزمن نفسه قد توقف عند أعتابها. كان المطر يضرب نوافذ المبنى الحجري في إيقاع منتظم يشبه وقع الطبول البعيدة، فيما تصاعد دخان الشموع والمواقد الصغيرة ليرسم في الهواء أشباحاً متراقصة فوق رؤوس الجالسين.

جلس الكابتن كيد في مقعده الخشبي ، مقيد اليدين ، لكنه بدا رغم القيود أشبه ببحار خرج لتوه من عاصفة هوجاء ولم يفقد بعد كبرياءه القديم.

كانت عيناه الغائرتان تحملان لون البحر في أيام الشتاء ؛ رماديتين ، متعبتين ، لكنهما لم تكونا عينَي رجل مهزوم.

رفع المحقق البريطاني رأسه عن الأوراق المكدسة أمامه ، ثم قال بصوت جاف لا يعرف الرحمة :

إذن، أخبرنا مرة أخرى يا كابتن ، ماذا حدث بعد لقائك بالكابتن أندرو ماسون ؟

تنهد كيد طويلاً ، وكأن السؤال لم يوقظ ذاكرته بقدر ما أعاد إليه ألماً قديماً لم يندمل بعد.

قال بصوت منخفض : لم يكن أمامي إلا أن أنزل عند أوامره... فهو، في نهاية المطاف ، أحد قادة الأسطول البريطاني، ورجل يحمل تفويضاً لا يملك بحار مثلي أن يجادله فيه.

رفع المحقق حاجبه وقال : تعني أنه استولى على نصف ما كان بحوزتك من المدافع ؟

ارتسمت على وجه كيد ابتسامة مريرة.

لم يكتف بذلك...

ثم سكت لحظة، كأنه يستعيد المشهد أمام عينيه.

رأى من جديد الرجال يصطفون على سطح السفينة، ورأى ماسون يتنقل بينهم بعين الصقر وهو يختار من يشاء.

أكمل بصوت أثقل : لقد بالغ في انتقاء الرجال أيضاً... أخذ أفضل بحارتي ، وأقواهم عزيمة ، وأكثرهم خبرة في البحر والمدافع والمناورات. ترك لي العاجزين، والمرضى، ومن أثقلتهم السنون أو الخوف أو اليأس.

ثم أضاف وهو يحدق في الفراغ : لقد سلخ من سفينتي روحها قبل أن ينتزع منها سلاحها.

تبادل أعضاء لجنة التحقيق النظرات.

سأل أحدهم : وماذا فعلت بعد ذلك ؟

أجاب كيد : اتجهت إلى ميناء كاروان على الساحل الهندي. كنت أظن أن العدالة البريطانية ستقف إلى جواري ، وأن راية التاج التي رفعتها فوق صواري سفينتي لن تتركني وحيداً.

ابتسم بسخرية باهتة.

كنت ما أزال أملك بعض السذاجة آنذاك.

سكت قليلاً ثم تابع : أبلغت القنصل البريطاني بكل ما حدث بالتفصيل، وطلبت مساعدته في إلحاق عدد من البحارة بسفينتي، كما طلبت عشر مدافع جديدة مع ذخائرها حتى أتمكن من متابعة المهمة التي كلفني بها الملك.

ضرب المحقق الطاولة بأصابعه وقال : وهل استجاب لطلبك؟

هز كيد رأسه ببطء.

لم يفعل سوى المماطلة.

ثم رفع عينيه نحو السقف وكأنه يرى الأيام وهي تمر أمامه.

يوم بعد يوم... وأسبوعاً بعد أسبوع.

كانت الشمس تشرق فوق الميناء ثم تغرب ، والسفن تأتي وترحل ، أما طلبي فظل حبيس الأدراج والوعود.

اقترب أحد المحققين وقال : وكم استمر ذلك ؟

أكثر من أسبوعين.

ثم انخفض صوته فجأة.

وخلال تلك الفترة... اختفت سفينتي.

ساد الصمت داخل القاعة.

حتى النار المشتعلة في الموقد بدت وكأنها خفتت فجأة.

قال المحقق ببطء : السفن لا تختفي يا كابتن... حدثنا بدقة، ماذا جرى؟

أغمض كيد عينيه للحظة. وعادت به الذاكرة إلى تلك الليلة.

قال : كانت ليلة بلا قمر.

كانت السماء سوداء إلى درجة أن البحر اختفى داخلها، فلم يعد المرء يعرف أين ينتهي الماء وأين يبدأ الليل.

كنت أتناول العشاء في منزل القنصل البريطاني حين دخل أحد رجاله مسرعاً وهمس في أذنه.

رأيت اللون يغادر وجهه فجأة. توقفت يده في منتصف الطريق بين الطبق وفمه.

ساد الصمت حول المائدة.

ثم التفت إليّ وقال : يؤسفني يا كابتن كيد أن أخبرك بأن سفينتك قد اختفت من الميناء.

قفزت من مقعدي. صرخت دون أن أشعر :

اختفت؟ كيف تختفي سفينة؟ لقد كان على متنها عدد من رجالي للحراسة!

أجاب القنصل بصوت مرتبك :

أبلغني رئيس الحرس أن مجموعة من المجهولين هاجمت السفينة ، وتمكنت من إخراجها من الميناء قبل ساعات قليلة.

شعر كيد وهو يروي الحادثة بأن الدم ما زال يغلي في عروقه كما غلى في تلك الليلة.

قال : حتى اليوم لا أصدق ما سمعته آنذاك.

سفينة كاملة... بأشرعتها ومدافعها وبحارتها... تختفي من أحد أهم موانئ الإمبراطورية وكأن البحر ابتلعها في لحظة.

نظرت إلى القنصل وقلت : بحق السماء، أعطني إحدى السفن الحربية البريطانية وسأخرج حالاً لمطاردة اللصوص.

لكن الرجل هز رأسه.

وقال ببرود لم أنسه أبداً : هذه ليست مهمتك الآن يا كابتن، بل مهمة الأسطول البريطاني في المحيط الهندي.

ثم أضاف : ولا شك أن التحقيق سيثبت أنك لم تقصر في حماية السفينة أثناء وجودك في ضيافة القنصلية.

ابتسم كيد ابتسامة حزينة.

كانت تلك أول مرة أشعر فيها بأنني أقف وحدي تماماً.

رفع المحقق صوته : وهل اكتفيت بما قاله القنصل ؟

ماذا كنت تريدني أن أفعل ؟

أن تشتري سفينة أخرى مثلاً، وأن تطارد من سرقوا سفينتك.

رفع كيد رأسه فجأة.

بدت في عينيه شرارة غضب قديم.

قال : وماذا كتب القنصل في تقريره عن الحادث ؟

أجاب المحقق : لم يصلنا أي تقرير يتحدث عن سرقة السفينة.

اتسعت عينا كيد دهشة.

ماذا تقول ؟

آخر تقرير وصلنا منه لم يشر إلى شيء من ذلك.

وقف كيد فجأة حتى اهتز المقعد خلفه.

هذا مستحيل !

ثم صاح : أرسلوا إليه إذن! اسألوه بنفسكم ! سيخبركم بما حدث !

لكن المحقق قاطعه ببرود : نحن هنا لنستمع إلى أقوالك أنت، لا إلى أقوال الآخرين.

شعر كيد في تلك اللحظة بأن الجدران تضيق حوله.

لأول مرة راوده إحساس غريب بأن القصة كلها كُتبت مسبقاً ، وأن دوره الوحيد فيها هو الجلوس على المقعد المخصص للمتهم.

قال بصوت خافت : بعد ذلك جمعت المال من تجار كاروان.

توقف قليلاً.

كان أكثرهم أصدقاء قدامى تعاملوا مع سفني لسنوات طويلة ، قبل أن أكلف بالمهمة الملكية. كانوا يعرفونني جيداً. يعرفون أنني لست لصاً ولا قرصاناً. ويعرفون أيضاً أن البحر قد يبتلع الرجال الشرفاء كما يبتلع المجرمين دون أن يفرق بينهم. جمعت مبلغاً كبيراً، واشتريت سفينة تدعى أدفيس. كانت مسجلة رسمياً في سجلات البحرية التجارية البريطانية. ثم بدأت أبحث عن بحارة.

من كاروان... ومن الجزر القريبة... ومن السفن الراسية في الميناء.

جمعت من استطعت جمعه، وأبحرت مطارداً من سرقوا سفينتي.

رفع المحقق ملفاً سميكاً من فوق الطاولة.

قال : لكن التقارير التي وصلتنا من مختلف الموانئ في المحيط الهندي وعلى السواحل الإفريقية تقول شيئاً مختلفاً تماماً.

سأل كيد بحدة : ماذا تقول تلك التقارير ؟

فتح المحقق إحدى الصفحات.

تقول إن السفينة جالي المغامرة كانت تُرى دائماً إلى جانب السفينة أدفيس.

ثم رفع عينيه ببطء نحو كيد.

وتقول أيضاً إن السفينتين كانتا تعملان بأوامر رجل واحد.

ساد الصمت.

ثم أضاف المحقق : ـــ ذلك الرجل هو أنت.

بدا وكأن الكلمات تحولت إلى سهام أصابت الرجل في صدره.

قفز واقفاً وهو يصرخ : كذب!

ارتجت القاعة بصوته.

هذا كذب وافتراء !

كانت عيناه تشتعلان غضباً.

وقال بصوت مبحوح : أقسم أنني لم أر سفينتي منذ الليلة التي سُرقت فيها من ميناء كاروان.

ثم انخفض صوته فجأة.

لقد سرقوا سفينتي... وسرقوا معها اسمي أيضاً.

ساد الصمت مجدداً.

أما كيد فجلس ببطء فوق مقعده. كان يشعر أن البحر الذي قضى عمره كله يقاتل أمواجه قد تحول أخيراً إلى خصم يجلس داخل هذه القاعة.

وفي تلك اللحظة أدرك الحقيقة الأكثر قسوة في حياته : أن الرجل قد ينجو من العواصف، ومن المدافع، ومن القراصنة، لكنه قد يعجز عن النجاة من الشبهات حين تقرر الإمبراطوريات أن تبحث عن مذنب.

رفع رأسه نحو النافذة. كان المطر ما يزال يهطل في الخارج.

أما داخله، فقد كان يسمع صوتاً آخر. صوت الأمواج القديمة وهي تسأله : هل كنت حقاً تطارد القراصنة...

أم أن العالم كله قرر أن يجعلك واحداً منهم ؟

# الكابتن كيد أمام محكمة الأميرالية
# حين وقف البحر شاهداً والشك جلاداً

لم يكن صباح لندن في ذلك اليوم يشبه سواه من الصباحات.

كانت الغيوم الرمادية تزحف ببطء فوق سماء المدينة ، كأنها جيوش صامتة جاءت لتحاصر الشمس وتحجب عنها نورها. أما نهر التايمز، فقد بدا ساكناً على غير عادته، كأنه هو الآخر ينتظر ما ستؤول إليه تلك المحاكمة التي شغلت المرافئ والحانات والأسواق وأحاديث البحارة على امتداد الإمبراطورية البريطانية.

في قاعة الأميرالية الملكية جلس القضاة في وقار بارد ، تتدلى فوق رؤوسهم رايات المملكة، بينما كانت النوافذ العالية تسمح لخيوط ضوء شاحبة بالتسلل إلى الداخل فتستقر على أرضية القاعة الحجرية مثل أطياف بعيدة.

وفي وسط القاعة وقف الرجل الذي كانت البحار تهمس باسمه منذ سنوات. الكابتن ويليام كيد. وقف منتصب القامة ، لكن التعب كان قد ترك بصماته على وجهه. كانت عيناه تحملان ذلك البريق الغريب الذي لا يملكه إلا الرجال الذين عاشوا طويلاً بين العواصف، ورأوا الموت يمر بجوارهم مرات لا تحصى حتى صار جاراً مألوفاً لا يخيفهم كما يخيف الآخرين.

ومع ذلك، كان ثمة شيء جديد في عينيه ذلك اليوم. لم يكن خوفاً. ولم يكن غضباً. بل كان شعوراً أكثر قسوة من الاثنين معاً. كان شعور الرجل الذي بدأ يدرك أن عدوه الحقيقي لم يكن البحر قط، بل اليابسة.

رفع رئيس المحكمة بصره نحوه وقال بصوت هادئ يخفي وراءه صرامة الدولة كلها:

هناك ما هو أخطر يا كابتن كيد.

ارتفعت عينا كيد نحوه ببطء.

وما ذاك ؟

ساد الصمت لحظة قصيرة ، ثم قال القاضي : وصلتنا شهادات تؤكد أن السفينة جالي المغامرة كانت ترفع علم القراصنة في مياه المحيط الهندي، وأنها أغرقت أكثر من خمس سفن تجارية، واستولت على حمولاتها كاملة، ثم بيعت تلك البضائع في جزر الأنتيل لحساب ربان السفينة...

توقف القاضي قليلاً قبل أن يضيف :

لحسابك أنت يا كابتن كيد.

ساد الصمت. صمت ثقيل حتى إن صوت احتكاك الريح بزجاج النوافذ بدا واضحاً داخل القاعة.

أما كيد فقد بقي واقفاً بلا حركة. لكن شيئاً ما كان ينهار داخله. كان يعرف أن الاتهامات ستأتي. وكان يعرف أن الحسد يصاحب النجاح كما يصاحب الظل صاحبه. لكنه لم يتصور قط أن يصل الأمر إلى هنا. إلى قاعة الأميرالية نفسها. إلى أن يصبح هو، الذي خرج يوماً بتفويض ملكي لمحاربة القراصنة، متهماً بالقرصنة ذاتها.

رفع رأسه فجأة وقال بصوت امتزج فيه الغضب بالمرارة :

أي هراء هذا ؟

ارتد صدى صوته بين الجدران الحجرية.

ثم تابع : إن في استطاعتكم استجواب بحارة السفينة أدفيس التي عدت بها إلى إنجلترا. لقد كانوا شهوداً على كل تحركاتي، وعلى كل قرار اتخذته في عرض البحر.

راقب القاضي ملامحه طويلاً قبل أن يسأله : ولماذا عدت يا كابتن كيد ؟

كان السؤال بسيطاً. لكن وقعه على الرجل كان أشبه بطعنة خفية.

خفض كيد بصره للحظات. ورأى في ذاكرته المرافئ البعيدة. رأى مدغشقر. ورأى سواحل الهند. ورأى رجاله وهم يراقبون الأفق بحثاً عن سفينة تحمل راية العدو.

كم مرة جاعوا ؟ كم مرة كاد التمرد يشتعل بين البحارة ؟ كم مرة اضطر إلى اتخاذ قرارات يعلم أن التاريخ قد لا يغفرها له ؟

رفع رأسه ببطء وقال :

لا أنكر أن شائعات كثيرة وصلت إلى مسامعي أثناء وجودي في البحر.

توقف قليلاً. ثم أكمل بصوت أكثر هدوءاً :

شائعات تزعم أنني احترفت القرصنة ، وأنني خنت المهمة التي أوكلتها إليّ التاج البريطاني.

تأمل القاعة للحظة.

ثم قال : ولهذا عدت. عدت لأدافع عن اسمي. عدت لأبرئ نفسي من هذه التهمة المروعة. عدت لأن الرجل قد يحتمل خسارة الذهب، وخسارة السفن، بل وحتى خسارة العمر نفسه... لكنه لا يحتمل خسارة شرفه.

ساد الصمت من جديد.

لكن أحد أعضاء المحكمة مال إلى الأمام وقال : أليس في كلامك هذا تناقض يا كابتن؟

رفع كيد حاجبيه.

كيف ذلك ؟

قال القاضي :

لقد أظهرت دهشة كبيرة عندما سمعت الاتهامات الموجهة إليك في بداية الجلسة ، بينما تقول الآن إنك كنت تعلم منذ مدة بوجود تلك الشائعات.

ثم أضاف : بم تفسر هذا التناقض ؟

ابتسم كيد ابتسامة صغيرة خالية من الفرح. ابتسامة رجل بدأ يدرك أن الكلمات قد تتحول أحياناً إلى شراك.

قال : لا تناقض في الأمر إطلاقاً.

ثم رفع عينيه نحو القضاة واحداً تلو الآخر.

نعم ، كنت أعلم بوجود الشائعات.

لكنني لم أتخيل يوماً أن تتحول الشائعات إلى اتهامات رسمية. ولم يخطر ببالي قط أن تأخذ الأميرالية البريطانية بكلام بعض ربابنة السفن الفرنسية الذين لا يسرهم شيء أكثر من زرع الشقاق بين التاج البريطاني ورجاله العاملين في المحيطات.

ساد الوجوم على الوجوه.

أما كيد فقد تابع حديثه وكأنه يخاطب نفسه أكثر مما يخاطب المحكمة : البحر يا سادتي لا يشبه المدن. في المدن يستطيع الرجل أن يشرح نفسه في كل يوم. أما في البحر... فإن الأميال الطويلة من الماء تصنع عزلة هائلة بين الرجل والحقيقة. هناك، في المحيطات البعيدة، لا يبقى مع القبطان إلا قراراته. والقرارات في البحر لا تكون دائماً نقية كما يريدها أصحاب المكاتب الوثيرة.

ارتفعت همهمة خافتة بين الحاضرين.

لكن كيد لم يتوقف.

كان شيء ما قد انكسر داخله أخيراً. وربما للمرة الأولى منذ سنوات شعر بالحاجة إلى الكلام.

قال : هل تعرفون ما الذي يخشاه القبطان أكثر من العواصف ؟

ليس الصخور. وليس المدافع. وليس حتى القراصنة. إنه الخوف من العودة إلى الوطن ليكتشف أن وطنه لم يعد يعرفه.

خفض بصره قليلاً.

ثم قال بصوت خافت : لقد قاتلت باسم إنجلترا. وخاطرت بحياتي باسم إنجلترا. وتركت زوجتي وبيتي ومستقبلي باسم إنجلترا. فكيف أتحول فجأة إلى عدو لها ؟

كان السؤال معلقاً في الهواء.

ولم يجب أحد.

بعد لحظات قال رئيس المحكمة : يا كابتن كيد، نطلب منك أن تقدم تقريراً مفصلاً عن جميع تحركاتك منذ مغادرتك ميناء لندن لتنفيذ المهمة الملكية وحتى عودتك الأخيرة إلى البلاد.

ثم أضاف بنبرة رسمية : ستعرض نتائج هذا التحقيق، إلى جانب تقريرك، على صاحب الجلالة الملك، وهو من سيقرر مصيرك النهائي.

شعر كيد للحظة أن القاعة أصبحت أبرد من ذي قبل.

الملك. إذن فقد خرج الأمر من أيدي الرجال الجالسين أمامه. وأصبح الآن في يد السياسة. والسياسة، كما عرفها عبر سنوات طويلة، بحر أشد خطراً من المحيط الهندي نفسه.

رفع رأسه نحو النافذة. كانت السماء قد بدأت تمطر.

ابتسم ابتسامة شاحبة.

كم تشبه لندن البحر حين تغضب.

قال أخيراً : سأقدم لكم كل شيء.

كل ميناء رست فيه سفينتي. وكل سفينة اعترضنا طريقها. وكل طلقة أطلقتها مدافعنا. لن أخفي شيئاً. لأنني إن كنت قد تعلمت شيئاً من البحر، فهو أن الحقيقة تشبه اليابسة... قد تختفي خلف الضباب لبعض الوقت، لكنها لا تغرق أبداً.

نهض القضاة إيذاناً بانتهاء الجلسة.

أما كيد فبقي واقفاً في مكانه. كان يسمع وقع خطوات الجنود في الممرات الحجرية. ويسمع المطر وهو يضرب زجاج النوافذ. ويسمع أيضاً صوتاً آخر، لا يسمعه سواه. صوت البحر. ذلك الرفيق القديم الذي لم يخنه يوماً.

تساءل في أعماقه : هل أخطأت حين وثقت بالتاج ؟ هل كان يجب أن أبقى هناك ، في المحيطات البعيدة ، حيث تكون الخيانة واضحة الراية والهوية ؟ أم أن مصير الرجال الذين يعيشون طويلاً بين الأمواج أن يصبحوا غرباء حين يعودون إلى اليابسة ؟

أغمض عينيه للحظة. فرأى سفينته تشق الضباب. ورأى البحارة يرفعون الأشرعة. ورأى نفسه واقفاً عند المقدمة يحدق في الأفق. كم كان البحر بسيطاً. عدو وصديق. ريح وموج. نجاة أو هلاك.

أما هنا... فهناك منطقة رمادية واسعة لا يستطيع البحار أن يفهم قوانينها.

فتح عينيه ببطء.

ثم همس لنفسه : ربما كنت طوال حياتي أحارب القراصنة...

لكنني لم أدرك إلا الآن أن أخطر القراصنة ليسوا أولئك الذين يرفعون الرايات السوداء فوق السفن. بل أولئك الذين يختبئون خلف الأختام الملكية والموائد المذهبة والابتسامات الرسمية.

اقترب منه أحد الحراس قائلاً : حان وقت المغادرة يا كابتن.

نظر إليه كيد للحظة. ثم سار معه نحو الباب الكبير. وعندما خرج إلى شوارع لندن المبتلة بالمطر، رفع وجهه نحو السماء.

كانت قطرات الماء تنهمر على وجهه كما لو أن البحر نفسه جاء ليودعه. أو ليواسيه. لم يكن يعلم ماذا سيقرر الملك. ولم يكن يعلم إن كان التاريخ سيذكره كبحار شجاع أم كقرصان خائن. لكنه كان يعرف شيئاً واحداً فقط. أن الحقيقة، مهما تأخر وصولها، تظل تبحر في النهاية نحو الميناء الذي تستحقه.

# على حافة العرش والمشنقة
# محاكمة الكابتن كيد

واستطردت ليدي دريك في حديثها ، وقد مالت قليلاً نحو النافذة التي كانت تتسلل منها خيوط شمس لندن الشاحبة، كأنها تبحث في الضباب المتراكم فوق نهر التايمز عن جواب ضاع منذ سنين:

وبقي الكابتن كيد في لندن، لا يغادر الدار التي استأجرها إلا نادراً، كأن المدينة الواسعة قد تحولت حوله إلى سجن بلا قضبان. أما السفينة «أدفيس» فقد فُرضت عليها حراسة مشددة في الميناء، حتى بدا وكأن الأخشاب العتيقة التي صنعت منها تخفي بين ألواحها أسرار الإمبراطورية كلها.

كانت ليدي دريك تتحدث ببطء، كما لو أنها تخشى أن تزعج أشباح الماضي الراقدة بين الكلمات.

قلت : من الطبيعي أن يستجوبوا جميع أفراد الطاقم.

هزت رأسها في هدوء وقالت :

أجل... بل كان ذلك أول ما فعلته الأميرالية البريطانية. غير أن من الإنصاف أن أذكر أن الكابتن كيد لم يعد إلى إنجلترا بالطواقم نفسها التي غادر بها شواطئها.

توقفت لحظة، ثم تابعت : لقد جرده الكابتن ماسون في المحيط الهندي من نصف مدافعه تقريباً، وأخذ معه أكثر من نصف رجاله المدربين من ضباط وبحارة. كانت ضربة قاسية لرجل يعيش في البحر كما يعيش السمك في الماء؛ فالمدافع بالنسبة لقبطان مثله ليست مجرد حديد ونار، بل هي هيبة وسلطة وحصانة من أطماع الآخرين.

بدت في عينيها لمعة غريبة وهي تضيف : اضطر كيد بعد ذلك إلى تجنيد رجال جدد من الموانئ التي مر بها ؛ من مدغشقر، ومن الجزر الصغيرة المبعثرة في المحيط الهندي، ومن مرافئ لا يعرفها إلا التجار والبحارة والهاربون من العدالة. لم يكونوا جميعاً على المستوى المطلوب، وبعضهم كانت له سوابق في العمل على سفن القراصنة ، بل إن بعضهم كان يحمل في ملامحه القاسية رائحة البارود والنهب وأيام المطاردات البحرية.

ساد الصمت لحظة.

ثم أردفت : ومع ذلك، وعندما استُجوبوا جميعاً، القدامى منهم والجدد، أنكروا بالإجماع أن يكون الكابتن كيد قد ارتكب عملاً من أعمال القرصنة. لم يشهد أحد منهم أنه رأى قائده يرفع راية القراصنة السوداء، أو يأمر بنهب سفينة بريئة، أو يقتل أسيراً أعزل.

قلت وأنا أتأمل انعكاس النار في المدفأة : وماذا كان موقف الملك وليم الثالث؟

تنهدت ليدي دريك طويلاً. كان في تنهيدتها شيء يشبه تعب الممالك القديمة.

قالت : كان الملك في حيرة شديدة. لقد وُضعت أمامه الأوراق والتقارير والشهادات، لكنها لم تكن تحمل إدانة قاطعة، كما لم تكن تحمل براءة كاملة. كانت الحقيقة، كما يحدث كثيراً في السياسة، تقف في مكان ضبابي بين النور والظلام.

صمتت قليلاً ، ثم أضافت : تخيل يا صديقي حال رجل جلس على عرش إنجلترا، بينما يقف أمامه اسم بحجم وليم كيد؛ رجل أرسلته الدولة ليقاتل القراصنة، ثم عاد إليها متهماً بأنه أصبح واحداً منهم.

قلت : لا بد أن القرار كان بالغ الصعوبة.

ابتسمت ابتسامة حزينة.

بل كان أصعب مما تتصور. فالملك لم يكن يحاكم بحاراً واحداً، بل كان يحاكم سمعته هو نفسه، وسمعة التاج، وسمعة الرجال الذين منحوا كيد التفويض الملكي وأرسلوه إلى البحار البعيدة.

كانت الريح تضرب زجاج النوافذ كأنها تحاول التنصت إلى حديثنا.

ثم تابعت ليدي دريك : وقبل أن يصدر الملك قراره، وقع ما لم يكن في الحسبان.

رفعت رأسها نحوي وقالت بصوت خافت : ففي إحدى جلسات مجلس العموم، وقف أحد أعضاء حزب المحافظين من الويجز فجأة، ولوّح بورقة في وجه رئيس المجلس صارخاً : سيدي الرئيس! إنكم تتهمون رجلاً شريفاً أميناً نزيهاً بأخس التهم... تتهمونه بالقرصنة على السفينة جالي المغامرة، بينما قد تكون الحقيقة شيئاً آخر تماماً !

ساد الاضطراب في القاعة.

كان النواب يلتفتون بعضهم إلى بعض ، والهمسات تتحرك بين المقاعد كالنار في الهشيم.

وتابع الرجل بصوت أعلى : ماذا تقولون في هذه الرسالة التي وصلتني بالأمس فقط من صاحب السعادة اللورد بلمونت، حاكم نيويورك ، والمرفق معها تقرير رسمي من حاكم جزيرة بربادوس في البحر الكاريبي ؟

عندها دوى الضجيج في المجلس. وقف بعض الأعضاء من مقاعدهم.

وصاح آخرون : ماذا تقول الرسالة ؟

هل تحمل دليلاً جديداً ؟

هل تبرئ وليم كيد ؟

أم تدينه أكثر ؟

كان رئيس المجلس يطرق بمطرقته الخشبية بعنف طالباً النظام، لكن الفضول كان أقوى من النظام، والخوف كان أعلى صوتاً من القانون.

فإذا ثبتت براءة كيد، فسوف تسقط رؤوس سياسية كثيرة. وإذا ثبتت إدانته، فسوف يسقط معه رجال نافذون في الحكومة والبحرية وشركات التجارة.

قال عضو المجلس وهو يرفع الرسالة عالياً : إن حاكم نيويورك يؤكد أن الكابتن كيد سلّم بنفسه جميع الوثائق التي كانت بحوزته، وأنه لم يحاول الفرار أو الاختباء أو مقاومة السلطات.

ساد الصمت.

ثم تابع : وهل يفعل القراصنة ذلك ؟

كانت الكلمات تسقط فوق القاعة الثقيلة كالحجارة.

أما في مكان آخر من لندن، بعيداً عن ضوضاء البرلمان وصخب السياسة، كان الكابتن كيد يجلس وحيداً في غرفته المستأجرة. أمام المدفأة المتواضعة جلس الرجل الذي عرف المحيطات كلها، لكنه عجز عن فهم البشر. كانت يداه الخشنتان ترتجفان فوق الكأس.

وللمرة الأولى منذ سنوات طويلة، لم يكن يخشى العواصف. كان يخشى المحاكم.

رفع عينيه نحو النار المشتعلة.

تذكر المحيط الهندي. تذكر الليالي التي كانت السماء فيها تمتلئ بالنجوم حتى يخيل للبحار أن الله أشعل ألف مصباح فوق الماء. تذكر رجاله الذين ماتوا. وتذكر الرجال الذين خانوه.

ثم همس لنفسه : ألهذا قاتلت القراصنة ؟

لم يجبه أحد.

عاد يسأل نفسه : هل أخطأت حين وثقت بالسياسيين ؟

كانت النار تلتهم الحطب بصمت.

أما هو، فكانت الذكريات تلتهمه من الداخل. كان يدرك أن البحار أكثر رحمة من البلاطات الملكية.

في البحر تعرف عدوك بوضوح. ترى مدافعه. وترى رايته. وتعرف من أين ستأتي الضربة.

أما في السياسة، فإن الخناجر ترتدي القفازات الحريرية.

وقف كيد واتجه نحو النافذة.

في الخارج كانت لندن غارقة في الضباب. العربات تمر ببطء فوق الحجارة المبللة. والناس يمضون إلى أعمالهم غير مدركين أن رجلاً في هذه المدينة يقف بين المجد والمشنقة.

ابتسم ابتسامة مريرة.

كم مرة واجه الموت في البحار ؟ عشرات المرات.

ورغم ذلك لم يشعر بالخوف كما يشعر الآن. فالموت في المعركة واضح ونظيف وسريع. أما الموت على يد السياسة فبطيء، وغامض، وبارد كشتاء لندن.

وفي تلك اللحظة بالذات، دخل خادمه العجوز.

قال بصوت متردد : سيدي... هناك رسول من مجلس العموم.

التفت كيد ببطء.

شعر بأن قلبه أصبح أثقل من الحديد.

سأل : وهل قال ماذا يريدون ؟

أجاب الرجل : لا يا سيدي... لكنه طلب حضوركم غداً صباحاً.

ساد الصمت.

ثم قال كيد في هدوء غريب : إذن لقد حان الوقت.

رفع معطفه البحري القديم. ذلك المعطف الذي شهد العواصف والمعارك والموانئ البعيدة. مرر أصابعه على القماش الخشن كأنه يودع صديقاً قديماً.

ثم قال لنفسه : يا للعجب... لقد نجوت من مدافع الفرنسيين، ونجوت من أعاصير الهند ، ونجوت من القراصنة ، لكنني لا أعرف إن كنت سأنجو من أبناء وطني.

وفي صباح اليوم التالي ، كانت أجراس لندن تدق ببطء. وكانت المدينة تستيقظ على يوم جديد.

أما الكابتن وليم كيد ، فكان يمضي بخطوات ثابتة نحو مصيره ، لا يعلم إن كان ذاهباً إلى قاعة العدالة... أم إلى أول درجات المشنقة.

# الاسم الذي سرق البحر
# محاكمة الكابتن كيد بين الحقيقة والظل

كان المساء يهبط على القاعة الملكية ببطء الملوك ووثوق العصور القديمة ، وكانت النوافذ العالية تستقبل آخر خيوط الشمس القادمة من وراء نهر التايمز ، فتنساب على أرضية الخشب المصقول مثل شرائط ذهبية باهتة، كأن النهار نفسه يتردد قبل أن يغادر المكان الذي ستقرر فيه مصائر الرجال وسمعتهم وأسماءهم التي قد تعيش أو تموت بكلمة واحدة.

ساد الصمت. ذلك الصمت الثقيل الذي يسبق سقوط الأحكام الكبرى ، أو ولادة الأكاذيب الكبرى.

جلس أعضاء المجلس في أماكنهم ، تتوزع على وجوههم ظلال القلق والريبة والانتظار. بعضهم كان يقلب أوراقه ببطء، وبعضهم كان ينظر إلى سقف القاعة المزخرف وكأنه يبحث هناك عن جواب لا تملكه الأرض.

وفجأة نهض أحد أعضاء المجلس. كان رجلاً تجاوزته السنون دون أن تهزم وقاره ، يحمل في يده رسالة مختومة بالشمع الأحمر ، ويرفعها قليلاً أمام الحضور كما يرفع الجندي راية عثر عليها وسط ساحة المعركة.

قال بصوت هادئ، لكنه كان يحمل في أعماقه صلابة الحجر :

اقرأوا الرسالة مع التقرير أيها الزملاء.

التفتت إليه العيون جميعاً.

ثم أضاف وهو يلوح بالرسالة في الهواء : إنها رسالة واردة من حاكم نيويورك. وإني أودعها مكتب المجلس، وأترك للرئيس حرية

قراءتها أو عرضها قبل تقديمها إلى صاحب الجلالة الملك. لكنها ، على أي حال ، تشير بوضوح إلى غارة دموية قامت بها السفينة جالي المغامرة على جزيرة باربا روس.

ما إن نطق باسم السفينة حتى تحرك الهمس داخل القاعة كريح مرت فوق حقل قمح. تبادل الأعضاء النظرات. كانت جالي المغامرة اسماً يعرفه الجميع. اسماً يشبه الطعنة. اسماً مرادفاً للنار والدخان والسواحل المحترقة.

رفع أحد الأعضاء رأسه فجأة وقال : السفينة جالي ؟

ثم انحنى قليلاً إلى الأمام وكأنه يريد التأكد من أنه لم يسمع خطأ.

أهي ذاتها السفينة التي سُرقت من ميناء كاروان بالهند ؟

أجاب العضو : نعم، هي ذاتها.

ساد الصمت مرة أخرى.

كان الاسم وحده قادراً على استحضار صور كثيرة؛ مرافئ تحترق، وبحارة يفرون مذعورين، وأشرعة سوداء تظهر فجأة عند الأفق مثل نذر الموت.

قال عضو آخر وقد بدا التوتر في صوته :

ومن كان يقود تلك السفينة في غاراتها الدموية على باربا روس ؟

نظر صاحب الرسالة إلى الوجوه المحيطة به. كان يدرك أن الجواب الذي سيقوله بعد لحظات سيشعل القاعة كلها.

قال ببطء شديد : هنا ، أيها الزملاء، مربط الفرس.

ثم توقف لحظة قصيرة ، وكأنه يمنح الكلمات فرصة لتلتقط أنفاسها قبل أن تسقط على الحضور.

لقد كان قائد القراصنة في تلك الغارة رجلاً يدعى الكابتن كيد.

انفجر الهمس في القاعة. وتعالت الأصوات.

وضرب أحد الأعضاء الطاولة براحة يده قائلاً : إذن فالتهمة صحيحة !

وقال آخر : انتهى الأمر إذاً.

وقال ثالث : لقد اعترف البحر أخيراً بجرائمه.

لكن الرجل الذي يحمل الرسالة لم يتحرك. ظل واقفاً في مكانه ، كمن كان يتوقع العاصفة ويعرف أن عليه انتظار مرورها.

ثم قال بهدوء : لا.

ساد الصمت فجأة.

التفت الجميع إليه.

قال أحد الأعضاء بحدة : ماذا تعني ب لا ؟

رفع الرجل نظره إليه مباشرة.

أعني أن الحقيقة أكثر تعقيداً من التهمة.

تجعدت الجباه. وتبادلت العيون نظرات الحيرة.

قال أحدهم : كيف يكون الرجل قائداً للغارة، ثم تزعم بعد ذلك أنه بريء ؟

اقترب صاحب الرسالة خطوة واحدة من الطاولة الطويلة.

كانت عيناه ثابتتين. وصوته أكثر هدوءاً من أي وقت مضى.

لأن الغارة وقعت في الوقت الذي كان فيه المواطن الشريف وليم كيد يقيم في داره تحت التحفظ والمراقبة.

ساد الصمت مرة أخرى. هذه المرة لم يكن صمت المفاجأة. بل صمت الحسابات التي بدأت تتحرك داخل الرؤوس.

تابع الرجل حديثه : إن هذا يعني بكل بساطة أن هناك قرصاناً آخر انتحل اسم مواطننا الشريف وليم كيد، بعد أن استولى على سفينته وسخرها لنشر الفساد في المحيطات.

كان بعض الأعضاء يهزون رؤوسهم ببطء. بينما ظل آخرون ينظرون إلى الأوراق أمامهم كأنهم يبحثون بين السطور عن ثغرة تكذب هذا الكلام.

قال أحدهم : وهل يمكن لرجل أن يسرق اسماً كما يسرق سفينة ؟

ابتسم العضو ابتسامة خافتة.

إن سرقة السفينة أهون من سرقة الاسم يا سيدي. فالخشب يمكن تعويضه. أما السمعة، فإذا غرقت، غرقت إلى الأبد.

⊥

وفي مكان آخر من المدينة ، بعيداً عن تلك القاعة التي تتجادل فيها الألسنة حول مصيره، كان وليم كيد يجلس قرب نافذة غرفته الصغيرة. كانت السماء رمادية. والريح تداعب زجاج النافذة بصوت يشبه الهمس.

جلس الرجل صامتاً. أمام عينيه امتد البحر الذي عرفه طوال حياته. بحر لا ينسى. ولا يغفر. كان يفكر في الاسم.

اسمه. ذلك الشيء الغريب الذي يولد مع الإنسان دون أن يختاره ، ثم يقضي عمره كله يدافع عنه.

تمتم بصوت منخفض : كيف يستطيع رجل أن يسرق اسمي ؟

نظر إلى يديه. كانت اليدان اللتان قادتا السفن. ورسمتا الخرائط. وصافحتا الملوك والحكام. اليدان نفسيهما أصبحتا الآن عاجزتين عن الدفاع عن حروف قليلة تشكل اسمه.

أغمض عينيه. فعاد إليه البحر. عاد إليه صوت الأمواج وهي تضرب جوانب السفينة ليلاً. ورائحة الملح. وصراخ البحارة. وصرير الحبال.

كم مرة خاطر بحياته دفاعاً عن التاج البريطاني ؟ كم مرة طارد القراصنة في المحيطات البعيدة ؟ كم مرة وقف بين الموت والحياة وهو يعتقد أن الإمبراطورية ستتذكر له ذلك يوماً ؟

ابتسم بمرارة.

الإمبراطوريات لا تتذكر. الإمبراطوريات تتذكر المنتصرين فقط. أما الرجال الذين يخدمونها ثم يسقطون، فإن البحر يبتلع أسماءهم كما يبتلع الجثث.

رفع رأسه نحو النافذة.

كانت طيور النورس تحلق بعيداً.

فكر فجأة : ربما يشبه الإنسان سفينته أكثر مما يشبه بيته. كلاهما يمضي حياته مطارداً الريح. وكلاهما ينتهي به الأمر حطاماً على شاطئ مجهول.

⊥

في قاعة المجلس ، كان الجدل يزداد اشتعالاً.

قال أحد الأعضاء : لكن الشهود أكدوا أنهم سمعوا اسم الكابتن كيد يتردد بين أفراد الطاقم.

رد صاحب الرسالة : وهل يصبح الاسم دليلاً ؟ إذا ارتدى رجل تاج الملك، فهل يصبح ملكاً ؟ إذا حمل لص خاتم قاضٍ، فهل يصبح قاضياً ؟

إن الأسماء يمكن انتحالها. أما الحقيقة فلا.

قال عضو آخر : ولكن الرعب الذي زرعه ذلك الرجل في البحار كان حقيقياً.

أجاب : نعم ، كان حقيقياً.

لكن الرعب لا يحدد هوية صانعه. أحياناً يكون أكثر المجرمين مهارة هو ذلك الذي يرتكب الجريمة باسم رجل آخر.

ساد الصمت.

ثم نهض شيخ المجلس ببطء. كان رجلاً اعتادت القاعة أن تصمت عندما يتكلم.

قال : إذا كان وليم كيد بريئاً، فمن هو الرجل الذي حمل اسمه ؟

نظر الجميع إلى صاحب الرسالة.

لكنه هز رأسه ببطء.

لا أعرف.

ثم أضاف : وربما هذا هو أخطر ما في الأمر.

أن يكون هناك رجل يجوب المحيطات باسم رجل آخر. رجل يقتل ويغتصب ويحرق، بينما الضحية الحقيقية تجلس في بيتها تنتظر العدالة.

⊥

في تلك الليلة، لم يستطع وليم كيد النوم. ظل جالساً قرب النافذة. كانت المدينة نائمة. لكن رأسه كان يعج بالأصوات.

هل يكره ذلك الرجل الذي سرق اسمه ؟ أم يشفق عليه؟ أم يخاف منه ؟

كان الشعور الأخير هو الأقوى. ليس خوفاً على حياته. بل خوفاً على شيء آخر. شيء أكثر هشاشة من الجسد.

الحقيقة. لأن الحقيقة، حين تضيع بين المصالح والسياسة والخوف، تصبح أضعف من أن تدافع عن نفسها.

قال في سره : كم هو غريب هذا العالم...

يمكن للمرء أن يسرق ذهبك فتستعيده. أن يسرق منزلك فتشتري غيره. أما إذا سرق اسمك... فبأي شيء تستعيده؟

أغمض عينيه. وتذكر طفولته. وتذكر أباه وهو يقول له : احرص على اسمك يا بني، فالإنسان يعيش عمراً كاملاً ليبني اسمه، ويكفي يوم واحد ليهدمه.

يوم واحد فقط. وربما رسالة واحدة. وربما شهادة رجل لم يرك قط.

⊥

في صباح اليوم التالي ، عاد المجلس إلى الانعقاد.

وقف العضو نفسه مرة أخرى. وقال بصوت ثابت :

إني أطالب بتبرئة المواطن الشريف وليم كيد من التهمة الظالمة التي تحاول البحرية البريطانية إلصاقها به.

ثم رفع صوته قليلاً : كما أطالبها بأن تشرع فوراً في مطاردة القرصان الآثم الذي انتحل اسمه واستولى على سفينته، وأن يتم القبض عليه وتقديمه للمحاكمة بتهمة القرصنة والقتل والنهب.

ساد الصمت. هذه المرة كان الصمت مختلفاً. كان يشبه الوقوف أمام مفترق طرق. طريق يقود إلى العدالة. وطريق يقود إلى الراحة السياسية السهلة. وفي كثير من الأحيان كانت الدول تختار الطريق الثاني.

وقف رئيس المجلس ببطء.

ثم قال : سيُرفع التقرير إلى صاحب الجلالة.

وانتهت الجلسة. خرج الأعضاء من القاعة واحداً تلو الآخر. وبقيت الأوراق فوق الطاولة. وبقيت الرسالة. وبقي الاسم. ذلك الاسم الذي كان يتأرجح بين البراءة والإدانة مثل سفينة صغيرة وسط عاصفة كبيرة.

أما البحر... فقد ظل بعيداً يواصل أمواجه القديمة غير عابئ بمحاكم البشر وأحكامهم. فالبحر يعرف حقيقة واحدة فقط :

أن الإنسان قد ينجو من الرصاص. وقد ينجو من السجون. وقد ينجو حتى من الموت. لكنه نادراً ما ينجو من القصة التي يرويها الناس عنه.

وعندما تتحول القصة إلى حقيقة في عقول الآخرين ، يصبح الدفاع عن النفس أشبه بمحاولة إيقاف المد براحتي اليدين.

كان وليم كيد يعلم ذلك جيداً. ولهذا، حين نظر للمرة الأخيرة نحو الأفق البعيد، لم يكن يسأل نفسه إن كان سيبرأ أم لا.

كان يسأل سؤالاً واحداً فقط : هل يستطيع الإنسان أن ينتصر على الظل الذي يحمل اسمه ؟

ولم يكن البحر يملك جواباً. كان يواصل صمته الأبدي. ذلك الصمت الذي ابتلع أسماء ملوك وقادة وقراصنة لا حصر لهم. وربما كان يستعد، بصبر المحيطات الطويل، لابتلاع اسم آخر.

## الكابتن كيد: ظلُّ المشنقة فوق نهر التايمز

كان الضباب اللندني في ذلك الشتاء يبدو كأنه جزء من مؤامرة كبرى حيكت ضد رجل واحد.

في كل صباح ، كانت شمس لندن الشاحبة تحاول اختراق الغيوم الرمادية المعلقة فوق نهر التايمز ، لكنها كانت ترتد خائبة كما ترتد الحقيقة أحياناً أمام صخب الاتهامات. خلف جدران الإقامة التي فرضت عليه السلطات البريطانية الإقامة فيها تحت التحفظ، كان الكابتن وليم كيد يقف طويلاً أمام النافذة الضيقة ، محدقاً في صفحة النهر الكئيبة، كأنما يبحث في المياه عن وجهه القديم الذي سرقته المحاكم والأميرالية والوشايات.

في الجهة الأخرى من المحيط ، كانت زوجته وأطفاله يعيشون في قصره الكبير في نيويورك ، بين الحدائق الهادئة والأسوار العالية والخدم الكثيرين ، لكن المسافة بين لندن ونيويورك لم تكن تُقاس بالأميال البحرية ، بل بالخوف. خوف زوجة لا تعرف إن كان زوجها سيعود إليها بحاراً منتصراً أم جثة تتأرجح تحت حبل المشنقة. وخوف أطفال قد يستيقظون يوماً ليجدوا اسم أبيهم قد تحول من اسم قائد بحري إلى اسم قرصان في كتب التاريخ.

أما هو، فكان يعيش تحت ظل كلمة واحدة. القرصنة. كلمة قصيرة، لكنها كانت أثقل من المدافع التي حملتها سفنه ، وأقسى من عواصف المحيط الهندي ، وأشد قسوة من رياح رأس الرجاء الصالح.

فالقرصان لا يُسجن. القرصان يُشنق. وكان حبل المشنقة معلقاً فوق رأسه مثل سيف غير مرئي، يرافقه في نومه ويقظته، ويجلس معه إلى المائدة، ويتبعه حتى في أحلامه.

وفي كل بضعة أيام، كان أحد لوردات الأميرالية أو ضباط البحرية الملكية يزورونه محاولاً انتزاع اعتراف واضح منه.

وكان المشهد يتكرر دائماً. غرفة باردة. مدفأة ضعيفة النار. أوراق كثيرة. وأعين تراقبه كما يراقب الصياد ذئباً جريحاً.

دخل اللورد البحري العجوز هذه المرة بخطوات بطيئة ، وجلس مقابله دون أن يخلع قفازيه.

قال بهدوء : الكابتن كيد، جئنا مرة أخرى لنمنحك فرصة أخيرة لتوضيح الحقيقة كاملة.

ابتسم كيد ابتسامة باردة.

الحقيقة؟ الحقيقة أصبحت سلعة نادرة في لندن يا سيدي.

رفع اللورد رأسه قليلاً.

ما زلت تنكر تهمة القرصنة ؟

فجأة انفجر كيد غضباً ، وضرب الطاولة بقبضته حتى ارتجفت الكؤوس.

أتهمونني بالقرصنة ؟!

ساد الصمت.

ثم واصل بصوت اختلط فيه الغضب بالمرارة : هل لديكم دليل واحد ؟ دليل واحد فقط يثبت أنني كنت قرصاناً ؟

قال اللورد : لدينا شهادات كثيرة.

ضحك كيد ضحكة قصيرة قاسية.

شهادات ؟

ثم مال بجسده إلى الأمام وقال : ومن أصحاب هذه الشهادات ؟ ربابنة السفن الفرنسية ؟ أم الهولندية ؟ أم أولئك الذين كانت بلادهم في حرب مع التاج البريطاني ؟

صمت قليلاً، ثم أردف : كل ربابنة السفن الفرنسية والهولندية الذين تعرضوا لهجمات السفينة جالي المغامرة أكدوا أنهم كانوا يواجهون الكابتن وليم كيد نفسه.

اقترب وجهه من وجه اللورد حتى كادت المسافة بينهما تختفي.

وهل أصبح الأعداء شهوداً عدولاً في محاكم إنجلترا ؟

ظل اللورد صامتاً.

أما كيد فواصل حديثه وقد بدأت عيناه تلمعان بحدة :

أليس هؤلاء أحفاد أولئك الذين اتهموا السير فرانسيس دريك بالقرصنة ؟ ألم يكن دريك نفسه يوماً ما في نظر الإسبان لصاً وقطاع طريق ؟

لكنه في نظر إنجلترا بطل قومي.

ما الفرق إذن ؟

إذا كان الرجل يهاجم سفن أعداء الملكة فهو بطل. أما إذا تغيرت المصالح السياسية أصبح قرصاناً. هكذا تصنع الإمبراطوريات أبطالها ومجرميها.

ساد الصمت مرة أخرى.

وكان صوت الحطب المشتعل في المدفأة هو الصوت الوحيد في الغرفة.

في أعماق نفسه، شعر كيد بشيء من التعب. ليس تعب الجسد. بل تعب الروح.

لقد أمضى سنوات طويلة يطارد الرياح فوق المحيطات ، ويواجه العواصف والأوبئة والتمرد والجوع ، لكنه لم يتخيل أن أصعب معاركه كلها ستكون داخل غرفة صغيرة في لندن.

معركة ضد الكلمات. وضد المحاضر. وضد التوقيعات الرسمية. وضد الذاكرة البشرية.

قال اللورد : لكن بحارة كثيرين أكدوا أنك كنت تقود الهجمات بنفسك.

رفع كيد حاجبيه ساخطاً.

وأين هم بحارتي الذين جاؤوا معي على متن السفينة أدفيس ؟ لماذا لا تستمعون إليهم ؟ لماذا تصدقون الأعداء وترفضون الرجال الذين عاشوا معي سنوات ؟ لماذا ؟

لم يجب أحد.

فواصل حديثه: ابحثوا عن الرجل الذي انتحل اسمي. ابحثوا عن ذلك الشبح الذي ظهر بعد مغادرة سفينتي ميناء كاروار في الهند. ابحثوا عن ذلك الرجل الذي استولى على سفينتي أو استخدم اسمها ، ثم راح يمارس القرصنة تحت رايتي.

رفع اللورد حاجبه ساخراً.

وهل تريدنا أن نصدق أن قرصاناً مجهولاً أخذ اسمك وراح يجوب البحار به؟

أجاب كيد بحدة : ولم لا ؟

البحر مليء بالأشباح يا سيدي. ومليء بالرجال الذين يسرقون الأسماء كما يسرقون الذهب.

كان يتكلم بحماسة ، لكنه في أعماقه لم يكن متأكداً إن كان يحاول إقناعهم أم إقناع نفسه. فمنذ شهور طويلة، بدأت الحقيقة نفسها تتشقق داخله.

هل خانته ذاكرته ؟ هل تداخلت المعارك ؟ هل اختلطت أوامر الحرب بإغراء الغنائم ؟

كان يحاول طرد هذه الأسئلة، لكنها كانت تعود دائماً. في الليل. وفي الصمت. وفي اللحظات التي يخلو فيها إلى نفسه.

قال اللورد فجأة :

الكابتن شارل هنسو الفرنسي تعرف عليك فور رؤيتك في مبنى الأميرالية قبل أسبوعين.

ارتسمت على وجه كيد علامات التوتر.

تابع اللورد : لقد أشار إليك بيده وقال: هذا هو الرجل الذي هاجم سفينتي قرب جزيرة أنتيغوا. هذا هو الرجل الذي كان بحارته ينادونه : الكابتن كيد.

ساد الصمت.

حتى المدفأة بدت كأنها توقفت عن التنفس.

ثم قال كيد ببطء : الرجل كاذب.

نظر إليه اللورد بصمت.

فأكمل : كاذب ومزور.

ولم يقل ذلك إلا لأنه يريد إجبار الأميرالية البريطانية على دفع التعويضات عن خسائره المزعومة.

وهل اخترع وصفك أيضاً ؟

يستطيع الكذب أن يخلق ألف وجه للرجل الواحد.

قالها ثم أدار رأسه نحو النافذة. في الخارج كان الضباب يبتلع لندن شيئاً فشيئاً. وفجأة شعر بأن المدينة كلها تتحول إلى محكمة ضخمة.

البيوت قضاة. والشوارع شهود. والنهر جلاد. أما هو فكان المتهم الوحيد.

تذكر زوجته. تذكر ضحكتها وهي تودعه في نيويورك. تذكر يد ابنه الصغيرة وهي تتشبث بمعطفه يوم الرحيل. تذكر كيف وعدهم بأنه سيعود غنياً. قوياً. منتصراً.

ولم يعد إلا متهماً ينتظر حكم الموت.

همس لنفسه : أيها البحر... كم من الرجال ابتلعت ؟ وكم من الرجال سلمتهم إلى المشانق ؟

اقترب اللورد منه وقال :

إذا اعترفت ، فقد يساعدك ذلك في تخفيف الحكم.

استدار كيد نحوه ببطء.

الاعتراف بماذا ؟ بالقرصنة.

ابتسم كيد ابتسامة حزينة.

هناك أشياء أسوأ من الموت يا سيدي.

مثل ماذا ؟

أن يموت الإنسان وهو يعلم أن اسمه سيعيش كذبة في أفواه الناس.

وقف اللورد استعداداً للمغادرة. لكنه توقف عند الباب وقال :

أحياناً لا تهتم الإمبراطوريات بالحقيقة. تهتم فقط بما تحتاج إليه.

رفع كيد رأسه ببطء.

أعرف ذلك جيداً.

غادر اللورد.

وبقي كيد وحيداً. اقترب من النافذة مرة أخرى.

في الأسفل كان الناس يعبرون الشارع دون أن يلتفتوا إلى الرجل الذي قد يصبح خلال أشهر قليلة أشهر قرصان في التاريخ البريطاني. أو أشهر ضحية سياسية في تاريخ البحرية البريطانية.

من يدري ؟

جلس على كرسيه وأغمض عينيه. ورأى البحر. رأى أمواجه السوداء. ورأى أشرعة سفينته البيضاء. ورأى وجوه بحارته. بعضهم مات. وبعضهم اختفى. وبعضهم باعه مقابل النجاة.

وفهم فجأة أن البحار تشبه البشر كثيراً. هادئة من بعيد. وممتلئة بالوحوش في الأعماق.

وفي تلك الليلة ، ظل الكابتن وليم كيد مستيقظاً حتى الفجر.

لم يكن يخشى الموت. كان يخشى شيئاً آخر. أن يتحول الإنسان بعد موته إلى رواية يكتبها خصومه.

وعندما بدأت خيوط الصباح الأولى تتسلل إلى الغرفة، وقف ببطء، ونظر إلى السماء الرمادية فوق لندن، ثم قال بصوت خافت كأنه يحدث نفسه :

ربما يشنقون الجسد. لكنهم لن يشنقوا الحقيقة.

ثم صمت قليلاً وأضاف : المشكلة الوحيدة... أن الحقيقة نفسها لا تعرف أحياناً في أي صف تقف.

# الكابتن الذي ضاع بين البحر والمحكمة

كان الليل قد أسدل عباءته الثقيلة فوق قلعة ورشيب ، وتسللت الريح عبر الشقوق الحجرية العتيقة كأنها أنفاس قرون مضت ولم تجد بعدُ سبيلها إلى السكون. في تلك الساعة التي تتردد فيها الأرواح بين اليقظة والحلم، كنا ما نزال نجلس في دار ليدي وارين دريك، أمينة مبنى البحرية البريكانية، المرأة التي بدت كأنها خرجت من إحدى اللوحات القديمة، تحمل في عينيها زرقة بحر يعرف أسرار السفن أكثر مما يعرف البشر أسرار قلوبهم.

كان وهج المدفأة يرقص فوق الجدران، فتتمايل الظلال كما لو أن بحارة غرقى عادوا ليستمعوا إلى الحكاية التي لم تنتهِ منذ ثلاثة قرون.

رفعت ليدي دريك رأسها ببطء وقالت : ما الاعتراف الذي تريدونه من رجلٍ أنهكه الاتهام قبل أن ينهكه البحر ؟

ساد الصمت.

ثم تابعت بصوت اختلط فيه الغضب بالأسى :

لماذا لا تستدعون من نيويورك صديقي الحاكم الجنرال بلمونت ؟ لماذا لا تأتون بزوجته التي استقبلت الكابتن بنفسها في قصرها المطل على الميناء ؟ لماذا لا تسألونها أمام المحكمة كما تسألون الجنرالات والوزراء ؟ ستخبركم جميعاً أن وليم كيد حين رست سفينته في ميناء نيويورك كان على متن السفينة أدفيس ، لا على ظهر السفينة جالي المغامرة التي تزعمون أنه مارس القرصنة فوق ألواحها الخشبية.

توقفت قليلاً، ثم مالت نحونا.

أخبروني... كيف يمكن لرجل أن يكون في مكانين في الوقت ذاته ؟

لم يجب أحد.

كان السؤال أكبر من الجغرافيا، وأثقل من الخرائط.

قال أحد الحاضرين : لكن القرائن كثيرة ضده يا سيدتي.

ابتسمت ليدي دريك ابتسامة حزينة.

القرائن...

ثم كررت الكلمة كأنها تتذوق مرارتها.

ما أكثر القرائن حين يحتاج الساسة إلى مذنب ، وما أقل الحقيقة حين تصبح عبئاً على أصحاب السلطة.

نظرت نحو النافذة حيث كان الضباب يبتلع أبراج القلعة.

تلك هي القصة التي تتكرر دائماً. يتهم المواطن المحترم وليم كيد بالقرصنة، ويقف الرجل وحيداً في مواجهة إمبراطوريات كاملة، فلا يجد من يبرئه، ليس لأنه مذنب، بل لأن الذين يعرفون براءته أبعدتهم المسافات أو أسكتتهم المصالح.

ثم أضافت بصوت خافت : لقد خرج برسالة ملكية موثقة، تحمل ختم التاج نفسه، ولم يغادر إنجلترا إلا ليطارد القراصنة ويعيد الأمن إلى البحار. لكن البحر يا سادتي لا يغير الرجال وحدهم، بل يغير أيضاً ذاكرة الملوك.

⊥

في تلك اللحظة بدا لي أن الغرفة اختفت ، وأننا انتقلنا إلى قصر ملكي في لندن ، حيث كان الملك وليم الثالث يقف قرب نافذته ، ينظر إلى السماء الرمادية التي لا تكف عن إنزال المطر فوق العاصمة.

قال الملك لوزيره الأول لورد جريفت : لا أصدق أن وليم كيد قرصان.

رفع الوزير رأسه في حذر.

ولكن التقارير يا مولاي...

قاطعه الملك : التقارير يكتبها البشر ، والبشر يخطئون ، ويكذبون أحياناً.

اقترب من المدفأة.

لقد قابلته يوم كلفته مطاردة القراصنة في الأطلسي والمحيط الهندي. أتذكر وجهه جيداً. كان ينظر إلى عيني مباشرة ، لا إلى الأرض كما يفعل الكاذبون. رأيت رجلاً شريفاً ، ورأيت بحاراً يؤمن أن القانون يمكن أن يعيش حتى في قلب العاصفة.

ساد الصمت.

ثم أردف الملك : رجال الإدارة في ماساتشوستس يؤكدون نزاهته، لكن سفراء فرنسا وإسبانيا وهولندا يطالبون جميعاً بشنقه.

رفع الوزير حاجبيه.

السياسة يا مولاي لا تؤمن كثيراً بالبراءة.

ابتسم الملك بمرارة.

أعرف ذلك جيداً ، ولهذا أخشاها أكثر مما أخشى المدافع.

⊥

عاد صوت ليدي دريك يقطع الصمت : لقد كان الملك حائراً، حائراً إلى الحد الذي يجعل النوم نفسه يبدو خيانة.

سألتها : وهل شهد ضده أحد من رجاله ؟

تنهدت طويلاً.

كان معظم أفراد الطاقم من حثالة الموانئ ، رجال جمعتهم الحاجة أكثر مما جمعتهم الأخلاق ، ومع ذلك شهدوا جميعاً تقريباً بأنهم لم يروا من الكابتن كيد طوال رحلتهم على السفينة أدفيس إلا النبل والعدل والصرامة الشريفة.

ثم ابتسمت.

كانوا يخافونه أحياناً ، لكنهم لم يحتقروه أبداً، وهناك فرق كبير بين الخوف والاحتقار في البحر.

اقتربت من الطاولة وأكملت : قال أحد البحارة في شهادته: لم أر الكابتن يرفع صوته إلا دفاعاً عن رجل ضعيف أو احتجاجاً على ظلم.

وقال آخر : كان يعاقب السرقة بين البحارة كما يعاقب التمرد، وكان يردد دائماً أن السفينة التي تفقد شرفها تغرق قبل أن يمسها الموج.

صمتت قليلاً.

هل تسمعون ؟ حتى الرجال الذين لا يملكون ما يخسرونه رفضوا أن يكذبوا عليه.

⊥

لكن العالم كان قد اتخذ قراره.

وصلت إلى مجلس العموم رسالة من الجنرال بلمونت ، حاكم نيويورك.

وقف أحد النواب وقرأ الرسالة بصوت مرتفع :

تشير التقارير إلى أن قرصاناً يدعى الكابتن وليم كيد هاجم جزيرة باربادوس في البحر الكاريبي مستخدماً سفينة تحمل اسم جالي المغامرة.

ارتفعت الهمسات في القاعة.

ثم أكمل النائب : وقد تم رصد السفينة خلال الفترة نفسها التي كان فيها الكابتن كيد موجوداً في لندن تحت التحفظ.

ساد الصمت. صمت طويل وثقيل.

رفع أحد النواب صوته : كيف يكون الرجل في لندن والقرصان في الكاريبي ؟

أجابه آخر ببرود : ليست مهمتنا أن نفهم، بل أن نصوت.

وهنا فقط أدرك بعض الحاضرين أن العدالة قد غادرت القاعة منذ وقت طويل.

⊥

أما وليم كيد نفسه فكان يجلس في زنزانته الحجرية ، ينظر إلى الجدار المقابل كما لو أنه ينظر إلى البحر. كان يسمع قطرات الماء تتساقط من السقف. قطرة... ثم أخرى... ثم أخرى...

وشعر فجأة أن الزمن نفسه تحول إلى ماء يتسرب من بين أصابعه.

قال في نفسه : كم يبدو البحر رحيماً مقارنة بالبشر.

أغمض عينيه.

عاد يرى المحيط الهندي. يرى الأمواج الزرقاء الهائلة. يرى الشمس وهي تغرق كل مساء في المياه البعيدة. يرى رجاله وهم يغنون فوق السطح. ويرى نفسه واقفاً عند المقدمة، يحدق في الأفق كأن العالم كله يمكن اختصاره في خط رفيع بين السماء والماء.

همس : لم أخن التاج.

ثم أعادها بصوت أعلى : لم أخن التاج.

لكن الجدران لم تجبه.

فقال لنفسه : هل يكفي أن يكون المرء بريئاً كي ينجو ؟

كان السؤال جديداً عليه. في البحر كان الجواب دائماً بسيطاً.

إما أن تنجو السفينة أو تغرق. إما أن تهب الريح أو تسكن. إما أن يعيش الرجل أو يموت.

أما على اليابسة ، فقد اكتشف أن هناك منطقة رمادية واسعة بين البراءة والإدانة، وأن السياسة تسكن هناك منذ زمن بعيد.

⊥

تذكر زوجته في نيويورك. تذكر صوتها وهي تقول له يوم الرحيل :

عد سريعاً يا وليم، فالمدن لا تشبه البحر، إنها تنسى رجالها بسرعة.

ضحك يومها. لكنه فهم الآن ما كانت تقصده. فالمدن تنسى. والسياسة تنسى. والملوك ينسون.أما البحر فلا ينسى أبداً.

⊥

في صباح بارد دخل الحارس إلى الزنزانة.

قال : سيبدأ التحقيق بعد ساعة.

رفع كيد رأسه.

وهل تغير شيء؟

هز الحارس كتفيه.

لا أعرف.

ابتسم كيد.

وأنا أعرف.

نهض ببطء.

رتب ثيابه.

ومرر يده على شعره الرمادي.

ثم قال : أخبرني، هل البحر هادئ اليوم ؟

نظر الحارس إليه بدهشة.

لا أدري.

ابتسم كيد مجدداً.

كنت أظن أن البحارة وحدهم يسألون عن البحر قبل أي شيء آخر.

⊥

في المحكمة وقف وليم كيد منتصب القامة. لم يطلب الرحمة. ولم يطلب الشفقة.

قال فقط : أطلب الحقيقة.

قال القاضي : الحقيقة موجودة في الأدلة.

أجاب كيد : الحقيقة لا تسكن الأوراق دائماً.

قال القاضي بحدة : هل تنكر أنك كنت قائد السفينة جالي المغامرة ؟

قال : لا أنكر.

وهل تنكر أن السفينة هاجمت سفناً أخرى ؟

لا أنكر وقوع الهجمات.

إذن ماذا تنكر ؟

رفع كيد رأسه.

أنني كنت قرصاناً.

ساد الصمت.

ثم تابع : هناك فرق بين رجل يحمل تفويضاً من الملك لمطاردة أعدائه، وبين رجل يقتل ويسرق لأجل الذهب.

اقترب خطوة.

إن كان تنفيذ أوامر التاج جريمة ، فليجلس معي في القفص كل من وقع على التفويض.

ارتبك بعض الحاضرين. لكن أحداً لم يتكلم.

⊥

خارج المحكمة كانت لندن تمطر. وكان الناس يتجمعون في الشوارع يتبادلون الأخبار.

قال رجل : سيشنقونه.

قال آخر : ربما يستحق ذلك.

رد شيخ عجوز : لا أعرف إن كان مذنباً أم بريئاً، لكنني أعرف شيئاً واحداً...

سكت قليلاً.

حين تصبح الدول قوية جداً ، فإنها تحتاج أحياناً إلى ضحية صغيرة تضع عليها أخطاءها الكبيرة.

⊥

عادت ليدي دريك إلى الصمت.

كانت النار في المدفأة تقترب من الانطفاء.

قالت أخيراً : ربما كان وليم كيد بريئاً، وربما ارتكب أخطاء، فمن منا لم يرتكبها؟

لكن السؤال الحقيقي ليس إن كان مذنباً أم لا.

نظرت إلينا بعينين غارقتين في البعيد.

السؤال هو : هل حوكم الرجل بسبب ما فعله ، أم بسبب ما احتاج الآخرون إلى تصديقه عنه ؟

لم نجد جواباً.

كانت الريح تعصف خارج القلعة. وكان الليل يزداد عمقاً.

أما في مكان ما، خلف ضباب القرون، فقد بدا لي أن سفينة وحيدة ما تزال تشق المحيط البعيد، وأن رجلاً يقف عند مقدمتها، يحدق في الأفق بصمت.

لم يكن يحمل كنزاً. ولم يكن يبحث عن ذهب. كان يبحث فقط عن شيء واحد ضاع بين الموانئ والمحاكم والملوك : اسمه.

وكان البحر وحده ما يزال يتذكره.

# وليم كيد: الرجل الذي سرقوا اسمه

لم تكن قاعة العموم البريطانية قد شهدت ، منذ أعوام طويلة ، عاصفةً كتلك التي انفجرت في ذلك الصباح الرمادي من شتاء لندن. كانت الكلمات تتطاير في الهواء كالسكاكين ، والوجوه المتجهمة ترتفع فوق المقاعد الخشبية القديمة كأنها أمواج بحر هائج.

وقف أحد النواب ، وقد احمر وجهه من الغضب ، وصاح بصوت ارتجفت له جدران القاعة : أهذه هي الأميرالية التي تحمي تجارة التاج ؟ أهذه هي البحرية التي تخشاها أمم الأرض ؟ كيف يعجز أسطول كامل عن معرفة الرجل الذي استولى على السفينة جالي المغامرة، ثم جاب البحار تحت اسم رجل شريف خدم المملكة بإخلاص؟

تعالت الأصوات من كل ناحية.

فضيحة !

إهانة للتاج !

كيف يُترك اسم الكابتن وليم كيد نهباً للشائعات ؟

وفي المقاعد الخلفية ، كان بعض النواب يتهامسون :

ربما كان كيد نفسه هو القرصان.

أو ربما صار الشريف لصاً حين أغواه الذهب.

لكن آخرين كانوا يرفضون ذلك بإصرار.

لقد عرفناه رجلاً منضبطاً.

قاتل القراصنة سنوات طويلة.

—ليس من السهل أن يتحول المرء بين ليلة وضحاها إلى وحش بحري.

وكان اسم وليم كيد يدور فوق الرؤوس مثل شبح لا يهدأ.

في تلك اللحظة ، بلغ صدى الجلسة أروقة القصر الملكي.

خرج الملك من صمته الطويل ، وقد بدا الضيق واضحاً على ملامحه. لم يكن يحب أن يظهر التاج بمظهر العاجز ، ولم يكن أكثر ما يزعجه خسارة سفينة أو مال ، بل خسارة الهيبة.

استدار نحو وزير البحرية وقال بنبرة حاسمة لا تحتمل النقاش :

إني أثق بالسيد الكابتن وليم كيد.

ساد الصمت.

تابع الملك : أعدوا له السفينة أدفيس. زيدوا عدد مدافعها، واختاروا لها أمهر رجال البحر وأكثرهم أمانة. امنحوه كل فرصة ممكنة لمطاردة الرجل الذي سرق سفينته وانتحل اسمه.

ثم توقف قليلاً، وكأن الكلمات التالية تحمل وزناً أكبر : أريد ذلك الرجل مقيداً بالحديد في لندن، ليحاكم أمام العدالة وأمام الناس جميعاً.

رفع الوزير رأسه متردداً : جلالتكم... ولماذا كيد بالذات ؟

نظر الملك من النافذة إلى سماء لندن الثقيلة ، ثم قال : لأنه الوحيد الذي يملك سبباً يجعله يطارد ذلك الرجل حتى آخر الدنيا.

وأضاف بصوت خافت : ـــلقد سُرقت سفينته... وسُرق اسمه أيضاً.

⊥

وهكذا عاد وليم كيد إلى البحر مرة أخرى. وقف على رصيف الميناء يتأمل السفينة الجديدة وهي تتمايل فوق الماء الرمادي.

كانت أدفيس أجمل مما توقع. هيكل أكثر صلابة. مدافع أكثر عدداً. أشرعة جديدة بيضاء كأنها لم تلامس الريح قط.

لكن قلبه لم يعرف الفرح. مد يده ولمس خشب السفينة بصمت، ثم همس لنفسه : أهذه حقاً فرصة جديدة ؟ أم أنها مجرد رحلة أخرى نحو الهاوية ؟

كان يشعر أن شيئاً ما قد انكسر داخله منذ اختفاء جالي المغامرة.

السفن يمكن تعويضها. المال يمكن استعادته. أما السمعة... فهي إذا غرقت في البحر، نادراً ما تعود إلى السطح.

تذكر الليالي التي قضاها وهو يسمع الناس يتهامسون باسمه في الحانات والمرافئ. ذلك هو كيد القرصان. احذروا التعامل معه.

يقال إنه يقطع الحناجر ويرمي الرجال للأسماك.

كم مرة أراد أن يصرخ : لست أنا !

لكن البحر لا يسمع التبريرات. والناس لا تحب الحقيقة بقدر ما تحب الحكايات.

⊥

في مساء اليوم نفسه، دخل عليه كبير الضباط.

سيدي الكابتن، الرجال بانتظار أوامرك.

رفع كيد رأسه ببطء.

هل تثقون بي ؟

تفاجأ الضابط بالسؤال.

بالطبع يا سيدي.

ابتسم كيد ابتسامة قصيرة حزينة.

إذن أنتم أكثر كرماً من العالم كله.

قال الضابط : الرجال لا يتبعون الشائعات ، بل يتبعون الرجال الذين رأوهم بأعينهم.

ظل كيد صامتاً للحظات.

ثم قال : أخشى أن يأتي يوم يصبح فيه الدفاع عن براءتي أصعب من مطاردة ألف قرصان.

رد الضابط بثبات : إذا كان الرجل بريئاً فلا بد أن تصل الحقيقة يوماً.

هز كيد رأسه ببطء.

البحر علمني شيئاً مختلفاً يا صديقي...

الحقيقة تصل متأخرة دائماً.

⊥

في صباح الرحيل ، وقفت نيويورك على الشاطئ تراقب السفينة وهي تغادر الميناء.

كان بعض الناس يلوحون له. وكان آخرون ينظرون إليه بريبة. وكان بعضهم يراقب المشهد بصمت، وكأنهم يشهدون جنازة لا رحلة.

أما كيد، فظل واقفاً عند مقدمة السفينة. لم يلتفت خلفه. لم يكن يخشى البحر. كان يخشى اليابسة.

على اليابسة يحاكمك الناس قبل أن يسمعوك. أما البحر، فيمنح الرجل فرصة ليقاتل دفاعاً عن نفسه.

حملته الرياح نحو المحيط الأطلسي. أيام طويلة مرت دون شيء يذكر. سماء واسعة. مياه لا نهاية لها. وصمت لا يقطعه سوى صرير الأخشاب وارتطام الأمواج بجوانب السفينة.

في الليل، كان كيد يبقى وحده فوق السطح بعد نوم الرجال. يرفع عينيه نحو النجوم. ويسأل نفسه السؤال ذاته كل ليلة :

من أنت أيها الرجل الذي سرق اسمي ؟ هل هو قرصان حقيقي ؟ أم تاجر خائن ؟ أم رجل يعرفه جيداً ؟

وأحياناً كانت فكرة أكثر ظلمة تزحف إلى عقله : وماذا لو كان هناك من يريدني أنا بالذات أن أتحول إلى القرصان الذي يتهمونني به ؟

كان يهز رأسه محاولاً طرد الفكرة. لكنها كانت تعود دائماً.

⊥

بعد أسابيع من الإبحار، وصلته الرسالة الملكية الجديدة. فتحها بنفسه تحت ضوء المصباح الزيتي.

قرأ الكلمات ببطء : تكلف المملكة الكابتن وليم كيد باستعادة السفينة جالي المغامرة من القرصان الذي استولى عليها ، وإحضاره إلى لندن مقيداً بالحديد.

أعاد قراءة السطور مرات عديدة. ثم ضحك ضحكة قصيرة غريبة.

اقترب الضابط الأول وسأله : ماذا هناك يا سيدي ؟

رفع كيد الرسالة.

إنها المرة الأولى في التاريخ التي يكلف فيها رجل بمطاردة نفسه.

ساد الصمت.

قال الضابط : لا تقل ذلك.

أجابه كيد : لكن العالم كله يقوله.

ثم أضاف : تخيل الأمر... إذا وجدت ذلك الرجل وقتلته فسأصبح بطلاً، وإن لم أجده فسأصبح هو.

⊥

ومنذ تلك اللحظة ، بدأ الغموض يلتف حول الرجل من كل اتجاه.

ظهرت رسائل. اختفت رسائل. وصلت أخبار متضاربة من الموانئ البعيدة. في كل ميناء كان البحارة يروون قصة مختلفة.

مرة قيل إن القرصان شوهد قرب مدغشقر. ومرة إنه هاجم سفناً فرنسية قرب الهند.

وفي روايات أخرى ، كان يرفع العلم الإنجليزي فوق صاري سفينته ويسمي نفسه : الكابتن وليم كيد.

كان الاسم يطارده في كل مكان.

حتى إنه بدأ أحياناً يشعر بأن هناك رجلين يحملان الاسم ذاته. واحد يقف هنا على متن أدفيس. وآخر يجوب العالم حاملاً وجهه وصوته وسمعته.

ثم جاءت الرسالة التي زادت الغموض غموضاً.

كانت تحمل ختم حاكم نيويورك. قرأها كيد ببطء شديد. وحين انتهى منها ظل صامتاً وقتاً طويلاً.

سأله مساعده : أخبار سيئة ؟

قال كيد :

لا أعرف.

ماذا تقول الرسالة ؟

ظل صامتاً لحظة ثم أجاب : تقول إن السلطات ما زالت تثق بي.

توقف قليلاً. لكنها تطلب مني الحذر من نفسي.

رفع الضابط حاجبيه.

ماذا تقصد ؟

قال كيد : هذا بالضبط ما لا أفهمه.

هل كانت الرسالة صحيحة ؟ هل كانت مزورة ؟ هل كتبها الحاكم حقاً ؟أم كتبها شخص آخر ؟

حتى اليوم لم يعرف أحد الجواب على وجه اليقين. فالوثائق اختفت. والشهود ماتوا. والبحر ابتلع نصف الحقيقة. و النصف الآخر، فقد ابتلعته السياسة.

⊥

ثم وقع الحدث الذي غيّر كل شيء.

مات الجنرال بلمونت، حاكم نيويورك، فجأة. وصل الخبر إلى السفينة بعد أسابيع. قرأ كيد الرسالة مرات عديدة غير مصدق.

جلس وحده في مقصورته ساعات طويلة. كان بلمونت آخر الرجال الأقوياء الذين آمنوا ببراءته. آخر من يستطيع أن يقول أمام الجميع : أعرف وليم كيد، وهذا الرجل ليس قرصاناً.

الآن رحل. والأموات لا يشهدون في المحاكم.

همس كيد لنفسه : إذن سقط آخر جدار.

شعر فجأة بأن المحيط كله أصبح أوسع. وأبرد. وأكثر وحشة.

خرج إلى السطح. كان الليل قد ابتلع السماء. والنجوم بعيدة على نحو غير مألوف. وقف بجانب السارية الرئيسية.

قال الضابط الأول : هل أنت بخير يا سيدي ؟

ابتسم كيد.

هل سبق أن شعرت بأن العالم كله يتحرك بعيداً عنك ؟

لم يجب الضابط.

قال كيد : كنت أملك سفينة فضاعت. ثم كان لي اسم فضاع هو الآخر. ثم كان هناك رجل يصدقني فمات. ماذا بقي الآن ؟

قال الضابط : بقيت الحقيقة.

ابتسم كيد ابتسامة مريرة.

الحقيقة ؟

ثم نظر إلى البحر المظلم وقال :

الحقيقة يا صديقي تشبه جزيرة صغيرة وسط محيط من الأكاذيب... وقد يموت المرء قبل أن يصل إليها.

في تلك الليلة لم ينم. ظل جالساً قرب النافذة الصغيرة في مقصورته. كان يسمع هدير البحر في الخارج. وفجأة وجد نفسه يتحدث إلى صورته المنعكسة على الزجاج.

من أنت ؟

صمت.

هل ما زلت وليم كيد الذي خرج يوماً لمطاردة القراصنة ؟ أم أنك أصبحت الرجل الذي يطارده الجميع ؟

تأمل وجهه طويلاً. كانت السنوات الأخيرة قد حفرت أخاديد صغيرة حول عينيه. أما الشعر الأسود، فقد بدأت تغزوه خيوط الشيب.

قال بصوت خافت : ربما لا يحتاج الإنسان إلى أن يرتكب الجريمة كي يعاقب عليها... يكفي أحياناً أن يصدقها الناس.

وعندما أشرقت الشمس في صباح اليوم التالي ، كان كيد قد اتخذ قراره. استدعى ضباطه جميعاً.

وقف أمامهم وقال : أيها السادة...

قد يأتي يوم تجدون فيه العالم كله ضدكم. قد تتهمون بما لم تفعلوا. وقد تضطرون إلى القتال دفاعاً عن أسمائكم لا عن حياتكم.

ثم رفع رأسه نحو الأفق.

أما أنا، فلن أعود إلى لندن إلا بأحد أمرين... إما بالرجل الذي سرق اسمي... أو بالحقيقة نفسها.

ساد الصمت.

وكان البحر وحده يجيب بصوت أمواجه الثقيلة.

وفي مكان بعيد ، خلف الأفق الذي لا نهاية له ، كان القدر يبتسم ابتسامته الغامضة ، ويعد للرجل فصلاً جديداً لم يكن يتوقعه أحد.

ففي بعض الأحيان، لا يكون أخطر ما يواجهه الإنسان هو أعداؤه... بل القصة التي يرويها العالم عنه.

# وليم كيد... الرجل الذي طارد ظله في البحار

كانت الأخبار التي تصل إلى موانئ الإمبراطورية البريطانية تتدافع كالأمواج المتكسرة على الصخور؛ لا تستقر على رواية ، ولا تنتهي إلى يقين. ففي صباح يحمل الريح الشمالية إلى ميناء بورتسموث ، يصل خبر يقول إن الكابتن وليم كيد شوهد وهو يهاجم سفن قراصنة الأنتيل بضراوة رجل يطارد شبحاً سرق منه اسمه وكرامته. وفي مساء اليوم نفسه ، تصل رسالة أخرى تؤكد أن السفينة نفسها رست في أحد المرافئ المشبوهة تتاجر في الحلي والجواهر المنهوبة من سفن تجارية اختفت في عرض البحر.

وكان الضباط في مبنى الأميرالية يقلبون التقارير كما يقلب القاضي أوراق قضية بلا شهود صادقين.

هل تحول وليم كيد إلى قرصان ؟ أم أن هناك رجلاً آخر يرتدي اسمه كما يرتدي القاتل قناع ضحيته؟

أما السؤال الأكبر فكان أكثر إيلاماً : وهل تمكن وليم كيد من استرداد سفينته الضائعة ، والقبض على الرجل الذي انتحل شخصيته وانطلق يعيث فساداً في البحار باسم الكابتن البريطاني الشهير ؟

⊥

في تلك الليلة ، كانت الرياح تعصف بأبراج القلعة البحرية الواقفة عند حافة الجرف الحجري ، بينما كان اللهب الهادئ للشموع يرتجف فوق الطاولة الخشبية الطويلة.

وقف وليم كيد أمام النافذة المطلة على البحر. كان البحر أسود كحبر قديم ، لا تظهر فيه سوى خطوط فضية ترسمها الأمواج تحت ضوء القمر.

همس لنفسه : ما أغرب أن يسرق الرجل مالك أو سفينتك ، لكن الأكثر قسوة أن يسرق اسمك.

ظل صامتاً طويلاً.

ثم عاد الصوت الداخلي يهمس في أعماقه : إن السفينة يمكن تعويضها، والثروة يمكن جمعها من جديد، أما السمعة فإنها إذا غرقت لا تنتشلها جميع أساطيل العالم.

كان يشعر أن بحراً آخر يضطرب داخله. بحر من الغضب. وبحر من الخوف. وبحر ثالث من الإهانة.

لقد أمضى سنوات طويلة يبني صورته في أعين رجال البحر ، حتى صار اسمه يعني الانضباط والشجاعة والولاء للتاج البريطاني.

والآن صار الاسم نفسه يثير الهمسات في الحانات والموانئ .

صار البحارة يتهامسون عندما يمر : هذا هو كيد... أهو الرجل ذاته ؟ أم أن القراصنة أصبحوا يرتدون وجوه الشرفاء ؟

وكان أكثر ما يؤلمه أن الشك بدأ يتسلل حتى إلى أولئك الذين عرفوه سنوات طويلة.

⊥

وصلته الأخبار بأن سفينته القديمة جالي المغامرة شوهدت قرب جزر الأنتيل. لكنها لم تكن تحمل رايته. كانت ترفع راية سوداء تتراقص فوقها جماجم بيضاء. وكان الرجل الذي يقودها يقدم نفسه للعالم باسم : الكابتن وليم كيد.

قبض كيد على حافة الطاولة بقوة حتى ابيضت أصابعه.

وقال بصوت خافت : أقسم بشرفي ، لن أرتاح حتى أعيد تلك السفينة إلى مياه لندن ، وحتى أقف بذلك الشيطان أمام المحكمة ليقول أمام الجميع من يكون.

رفع رأسه نحو الضباط الجالسين حوله.

لن يسرق أحد اسمي ويبقى حراً.

⊥

لكن الغموض كان يزداد.

فقد شوهدت سفينة الأدفيس، بقيادة وليم كيد نفسه، وهي تهاجم عدداً من سفن قراصنة الأنتيل وتغرق بعضها دون رحمة. وكان الناجون من تلك المعارك يقسمون أنهم سمعوا الكابتن يصيح فوق سطح السفينة:

أعيدوا لي سفينتي... وأعيدوا لي اسمي.

غير أن شهوداً آخرين أكدوا شيئاً مختلفاً تماماً.

قالوا إن كيد كان يطرد عدداً كبيراً من بحارة الأدفيس ويستبدلهم برجال سبق لهم العمل على سفن القراصنة. وكان بعضهم يحمل وشوماً اشتهرت بها موانئ الكاريبي المظلمة. وكان بعضهم يعرف طرق التهريب أكثر مما يعرف قوانين الملاحة.

هنا بدأت الشكوك تنمو. هل كان يطارد القراصنة ؟ أم كان يبني طاقماً جديداً ليدخل عالمهم ؟

الأكثر إثارة للريبة أن سفينة الأدفيس شوهدت في موانئ تلجأ إليها عادة سفن القراصنة الهاربة من مطاردة الأساطيل الأوروبية.

وفي تلك المرافئ كانت تباع الحلي والجواهر واللآلئ النادرة. وكان التجار يهمسون : البضاعة جاءت من البحر.

وفي لغة البحارة كانت هذه العبارة تعني شيئاً واحداً فقط. النهب.

لكن كيد كان يجيب دائماً بالجملة ذاتها : هذه بضائع اشتريتها وفق القانون.

إلا أن العيون لم تكن تصدقه. فالناس نادراً ما يصدقون الرجل الذي تحيطه الأسرار.

⊥

في إحدى الأمسيات ، كانت الليدي وارين دريك تجلس قرب المدفأة داخل القلعة القديمة. وكانت النيران تنعكس على ملامحها الهادئة.

قالت وهي تنظر إلى الحاضرين : عن أي كيد تتحدثون ؟

ساد الصمت.

تابعت بصوت ثابت : ألا يمكن أن يكون هناك رجل آخر انتحل اسم المواطن الشريف وليم كيد وانطلق كالشيطان يمارس القرصنة تحت حماية عجز الأسطول البريطاني ؟

تبادل الرجال النظرات.

قال أحد الضباط : لكن الأدلة كثيرة يا سيدتي.

ابتسمت ابتسامة خفيفة.

الأدلة ليست الحقيقة دائماً.

ثم أضافت : في الحروب، وفي السياسة، وفي البحار، كثيراً ما تكون الحقيقة أول الضحايا.

قال أحد الحاضرين : حقاً يا ليدي وارين دريك، إن الأمر يزداد غموضاً يوماً بعد يوم. لماذا لم تتحرك البحرية البريطانية بحزم لوضع حد لهذا اللغز ؟

رفعت نظرها نحو صورة زيتية معلقة على الجدار. كانت الصورة لرجل يحمل درعاً وسيفاً ويقف فوق سطح سفينة حربية.

قالت بهدوء : ذلك الرجل هو جدي الأكبر، السير فرانسيس دريك.

ساد الصمت احتراماً للاسم الذي ارتبط بتاريخ الإمبراطورية.

وأضافت : بعد انتصاره على الأرمادا الإسبانية، طلب من الملكة إليزابيث الأولى إنشاء أول مركز دائم للعمليات البحرية والتجارية البريطانية.

اقتربت من اللوحة.

ومع ذلك، اتهمه الإسبان والفرنسيون بالقرصنة.

التفتت إليهم.

لكن الملكة منحته لقب النبالة.

ثم ابتسمت ابتسامة حزينة.

الفرق بين القرصان والبطل القومي كان أحياناً لا يزيد على توقيع ملكي أو راية مختلفة.

ساد الصمت مرة أخرى.

كان الجميع يدركون قسوة تلك الحقيقة.

قلت وأنا أتأمل الأمواج المتكسرة خلف النوافذ : كان معظم رجال البحر البريطانيين مقتنعين بأن كيد خدع الجميع.

توقفت قليلاً.

كانوا يعتقدون أن القرصان الذي يرعب البحار ليس سوى وليم كيد نفسه.

ثم أضفت : أما قصة الرجل الآخر ، فلم تكن في نظرهم سوى ستار دخاني صنعه بذكاء ، ليخفي وراءه أعماله الدموية.

وأشار بعضهم إلى احتمال وجود اتفاقات سرية بينه وبين حكام بعض الجزر البريطانية في البحر الكاريبي. حكام يحصلون على نصيبهم من الذهب مقابل الصمت. وكان الذهب دائماً أكثر إقناعاً من القوانين.

لكن ما حدث لاحقاً جعل الشكوك ترتفع حتى بلغت حجم الجبال.

فقد تعرضت سفينة تجارية بريطانية لهجوم قرب مضيق بحري ضيق. وأكد الناجون أن المهاجم كان يحمل اسم وليم كيد. غير أن سجلات البحرية أثبتت أن الكابتن كيد نفسه كان في ذلك اليوم على بعد مئات الأميال من مكان الحادث.

عندها بدأ الخوف يتسلل إلى القلوب.

إذاً... كم وليم كيد يجوب البحار ؟ واحد ؟ أم اثنان ؟

أم أن البحر نفسه أصبح يلد أشباحاً تحمل الاسم ذاته؟

أما وليم كيد ، فكان يجلس وحيداً في مقصورته تلك الليلة. كان يسمع ارتطام الأمواج بجسم السفينة. كل موجة كانت تبدو له كأنها صوت اتهام جديد.

جلس أمام المرآة الصغيرة المعلقة على الجدار. نظر إلى وجهه طويلاً.

ثم سأل صورته المنعكسة : من أنت ؟

لم يكن السؤال موجهاً إلى المرآة. كان موجهاً إلى نفسه.

إلى الرجل الذي بدأ يفقد القدرة على التمييز بين مطاردة القرصان والتحول إليه.

إلى الرجل الذي صار يقضي أيامه في موانئ القراصنة ، ويستخدم بحارة القراصنة، ويتعامل مع تجار القراصنة ، ثم يعود ليقسم أنه يحارب القرصنة.

وأحياناً كان السؤال المرعب يمر في أعماقه كالسكين :

هل يمكن أن يتحول الإنسان تدريجياً إلى الشيء الذي يطارده ؟

ظل صامتاً.

ثم نهض ببطء. فتح النافذة. دخل هواء البحر البارد إلى المقصورة.

رفع عينيه إلى الظلام الممتد حتى الأفق.

وقال : سواء كان الرجل الآخر موجوداً أم لا... فإن النهاية لن تكون إلا لرجل واحد يحمل اسم وليم كيد.

وفي الخارج، كانت الأمواج تواصل ارتطامها بالسفينة، كأن البحر نفسه يعرف أن المعركة الحقيقية لم تكن بين رجل وقرصان... بل بين الإنسان وظله.

# الكابتن كيد: الرجل الذي خدع البحر والعرش

وما الذي وقع حقاً ؟

ساد الصمت في القاعة الواسعة كأن السؤال أُلقي في بئر بلا قرار. كانت النوافذ العالية في مبنى الأميرالية البحرية تستقبل ضوء مساء رمادي متردد، فيما كانت ألسنة اللهب في الموقد الحجري ترتجف كأنها تصغي هي الأخرى إلى الحكاية.

رفع السير هاملتون بصره ببطء و قال : على غير انتظار، وعلى خلاف كل ما توقعه الجيران والخدم والوسط التجاري في نيويورك ، اختفت السيدة كيد.

تبادل الحاضرون النظرات.

أكمل الرجل بصوت خفيض : لم تغادر وحدها ، بل أخذت معها أبناءها الثلاثة، وأغلقت أبواب القصر الكبير الذي كان زوجها وليم كيد يملكه في أحد أرقى أحياء المدينة ، ثم تلاشت كما يتلاشى الضباب فوق النهر مع أول خيط من شمس الشتاء.

سأل الضابط الجالس إلى جواره : إلى أين ذهبت ؟

تنهد السير هاملتون وقال : هذا ما حير الجميع. أيام طويلة مرت قبل أن تصل الأخبار المتقطعة إلى مكاتبنا. قيل إنها خرجت من ميناء نيويورك في ليلة اختفى فيها القمر تماماً خلف ستائر الغيوم السوداء، وصعدت مع أطفالها إلى قارب كبير أُعد سراً، وكأن الذين نظموا الرحلة كانوا يخشون حتى من أعين النجوم.

ساد الصمت مرة أخرى.

ثم أضاف : لم يكن في الميناء مصباح واحد مضاء على غير العادة. لم يسمع أحد صوت وداع، ولم تلوح يد من على الرصيف. كان المشهد أشبه بجنازة صامتة لا يعلم أحد من هو الميت فيها.

قال الضابط : وماذا حدث بعد ذلك؟

أجاب : خرج القارب إلى عرض البحر، وهناك كانت سفينة تنتظر بعيداً عن الأنظار، ساكنة كأنها قطعة من الليل نفسه.

اقتربت الليدي دريك قليلاً وقالت : سفينة زوجها ؟

أومأ السير هاملتون.

— أجل... سفينة وليم كيد.

تبدلت ملامح الحاضرين.

قال أحدهم في دهشة : الأدفيس ؟

نعم، الأدفيس نفسها.

ارتسم الصمت مجدداً، لكنه هذه المرة كان صمتاً أثقل من الرصاص.

كانت الأدفيس اسماً يثير القلق في الموانئ ، ويوقظ الهمسات في الحانات ، ويجعل البحارة يحدقون في الأفق كلما لمحوا شراعاً غريباً.

قال الضابط : وهل ثبت ذلك يقيناً ؟

أجاب السير هاملتون : بعد أشهر من البحث، وصلت إلينا أخبار أخرى. كانت متناثرة ومتناقضة، لكنها اجتمعت كلها حول حقيقة واحدة؛ السيدة كيد وأطفالها يعيشون في جزيرة سانتا أسكاديس.

ارتفع حاجبا الليدي دريك.

أسكاديس ؟

نعم.

قالت ببطء : جزيرة القراصنة.

أجاب الرجل : تماماً.

سكنت الغرفة.

لم يكن اسم الجزيرة عادياً في سجلات الإمبراطورية البريطانية.

كانت بقعة صغيرة مجهولة على الخرائط الرسمية ، لكنها في ذاكرة البحارة تشبه أسطورة بحرية ولدت من الخوف نفسه.

خليج ضيق تحيط به الصخور السوداء الحادة، والتيارات المائية العنيفة ، والشعاب التي لا ينجو منها إلا من حفظ أسرارها عن ظهر قلب.

كانت السفن تدخل إليه كما تدخل الإبرة في عينها ، أما من يجهل الطريق فكان البحر يبتلعه قبل أن يرى اليابسة.

قال الضابط : ولماذا لم ترسل البحرية البريطانية قوة إلى هناك ؟

ابتسم السير هاملتون ابتسامة شاحبة.

لأن ذلك لم يحدث قط.

ماذا تعني ؟

أعني أنه لم تتجرأ سفينة بريطانية واحدة على اقتحام الخليج الذي يحرس الجزيرة.

خوفاً من القراصنة ؟

خوفاً من البحر نفسه أولاً، ومن القراصنة ثانياً، ومن المجهول أخيراً.

سكت قليلاً ثم أضاف : كانت أسكاديس تشبه مملكة مستقلة لا سلطان عليها إلا قانون القوة. هناك لا تُرفع أعلام الدول ، بل أعلام الرجال.

تأملت الليدي دريك ألسنة النار المشتعلة وقالت : إذاً فإن لجوء زوجته إلى تلك الجزيرة ليس أمراً عفوياً.

بالطبع لا.

بل يحمل معنى واحداً فقط.

رفع الجميع أنظارهم إليها.

قالت : يعني أن وليم كيد لم يعد تاجراً من نيويورك.

أجاب السير هاملتون : بل أصبح شيئاً آخر.

قرصاناً ؟

ربما.

ارتسمت في ذهن الليدي دريك صورة الرجل الذي شغل الإمبراطورية بأكملها.

ويليم كيد... التاجر المحترم. الرجل الذي كان يبتسم في حفلات المدينة الراقية. صاحب الثياب الأنيقة والأحذية اللامعة. الزوج الذي كان يرافق زوجته إلى الكنيسة صباح الأحد.

هل يمكن لذلك الرجل نفسه أن يتحول إلى سيد للخوف في المحيطات ؟ هل يستطيع الإنسان أن يعبر هذه المسافة الشاسعة بين القانون والجريمة في ليلة واحدة ؟ أم أن البحر كان يسكن داخله منذ البداية ؟

قال الضابط : هناك من يقول إنه لم يكن سوى قرصان منذ البداية ، وإن كل ما فعله هو أنه ارتدى قناع التاجر لبعض الوقت.

هز السير هاملتون رأسه.

وهناك من يقول العكس تماماً.

كيف ؟

يقولون إن الرجل دخل البحر خادماً للملك، ثم اكتشف أن العالم أكثر تعقيداً مما تعلمه في الكتب والقوانين.

سأل الضابط : وهل تصدق ذلك ؟

لم يجب الرجل مباشرة.

كان يحدق في النار وكأنه يبحث بين اللهب عن وجه وليم كيد.

ثم قال : البحر يغير الناس.

تدخلت الليدي دريك : أو يكشف حقيقتهم التي كانوا يخفونها عن أنفسهم.

رفع الرجل بصره إليها.

ربما.

⊥

في مكان ما بعيداً، كانت أمواج المحيط تضرب صخور أسكاديس بعنف. وقف وليم كيد فوق مرتفع صخري يراقب البحر. كانت الرياح تعبث بمعطفه الأسود الطويل، فيما كانت عيناه تتبعان الأفق البعيد.

اقتربت زوجته منه.

قالت بهدوء : الأطفال يسألون عنك كثيراً.

ظل صامتاً.

يقولون إنك أصبحت تعيش مع البحر أكثر مما تعيش معنا.

ابتسم ابتسامة صغيرة متعبة.

ربما لأن البحر لا يسألني أسئلة لا أملك لها جواباً.

نظرت إليه طويلاً.

كان الرجل الذي يقف أمامها يشبه زوجها ويختلف عنه في الوقت نفسه. الوجه ذاته. العينان ذاتهما. لكن شيئاً آخر ولد داخله. شيء لا اسم له. شيء يشبه المسافات الطويلة والليالي الباردة والمدافع ورائحة البارود.

قالت : هل ندمت ؟

أدار وجهه نحو البحر.

على ماذا ؟

على الطريق الذي اخترته.

ظل صامتاً زمناً.

ثم قال : عندما أبحرت أول مرة كنت أظن أن العالم بسيط ؛ ملك هنا ، وأعداء هناك ، وقانون يفصل بينهما.

التفت إليها.

لكنني اكتشفت أن الرجال الذين يجلسون في القصور يطلبون منك أشياء لا يريدون الاعتراف بها لاحقاً.

قالت : تقصد الملك ؟

ابتسم بحزن.

أقصد الجميع.

جلس على صخرة قريبة وأكمل : عندما تنجح تصبح بطلاً، وعندما تصبح عبئاً يتحولون إلى نسيانك.

كان صوته هادئاً، لكنه حمل ثقلاً يشبه تعب السنين.

قال : أخبريني يا ماري... ما الفرق بين القرصان والجندي؟

أجابت بعد صمت : القانون.

ضحك ضحكة قصيرة خالية من الفرح.

لا.

نظر إليها.

الفرق الوحيد هو الورقة التي تحمل التوقيع الملكي.

سكت قليلاً.

الرجل نفسه ، والمدافع نفسها ، والبحر نفسه ، والموت نفسه.

ثم همس : حتى الدم يكون باللون نفسه.

خفضت زوجته رأسها.

قالت : لكنك ما زلت تخاف.

نظر إليها بدهشة.

تعرفينني جيداً.

نعم.

اقتربت منه أكثر.

أنت لا تخاف من السفن ولا من المدافع ولا من العواصف.

توقفت قليلاً.

أنت تخاف من أن تنظر إلى نفسك ذات صباح فلا تعرف من تكون.

تجمدت عيناه للحظة.

كانت كلمتها قد أصابت الجرح مباشرة.

للمرة الأولى منذ سنوات طويلة شعر أن أحداً قرأ ما كان يحاول إخفاءه عن نفسه.

قال بصوت منخفض : أحياناً أستيقظ ليلاً ولا أعرف إن كنت ما زلت الرجل الذي غادر نيويورك قبل سنوات.

هبت الرياح بقوة.

أكمل :

وأحياناً أشعر أن البحر سرق مني ذلك الرجل وألقى به في مكان بعيد لن أجده أبداً.

وضعت يدها على كتفه.

ربما لم يسرقه.

نظر إليها.

ربما أعاد صنعه فقط.

⊥

في مبنى الأميرالية، كان الحوار لا يزال مستمراً.

قال الضابط : إذا كان ما تقوله صحيحاً، فهذا يعني أن كيد خدع الملك مرتين.

أجاب السير هاملتون : هذا ما يقوله كثيرون.

مرة عندما حصل على تفويضه البحري. ومرة عندما استخدمه لصالحه.

أومأ الرجل.

قال الضابط : إذاً فقد اختار حياة القرصنة بإرادته.

أو ربما دفعتْه الظروف إليها.

قالت الليدي دريك : الإنسان لا يتحول فجأة إلى شيء آخر.

نظروا إليها.

تابعت : التحولات الكبرى تبدأ دائماً صغيرة جداً، صغيرة إلى حد أن أحداً لا يلاحظها.

سألتها إحدى السيدات : وما الذي بدأ عند كيد ؟

أجابت : الطموح ربما.

ثم أضافت : أو الخيبة.

صمتت قليلاً.

وربما الشعور بأن العالم لا يكافئ الشرفاء كما ينبغي.

تأمل السير هاملتون كلماتها طويلاً.

ثم قال : إذن نحن لا نحاكم رجلاً فقط، بل نحاكم زمناً كاملاً.

ابتسمت الليدي دريك.

وهذا أصعب بكثير.

اقترب الليل من نهايته. و بقي سؤال واحد معلقاً في الهواء، لا تملك الأميرالية له جواباً.

هل كان وليم كيد قرصاناً تنكر في هيئة تاجر ؟ أم تاجراً دفعت به أمواج العالم إلى أن يصبح قرصاناً ؟ هل كان خائناً؟ أم مجرد رجل سبق عصره وفهم اللعبة قبل الآخرين ؟

لا أحد كان يعرف.

حتى البحر نفسه ، الذي حفظ أسرار آلاف الرجال، ظل صامتاً هذه المرة.

⊥

وفي مكان بعيد، على شاطئ أسكاديس، وقف وليم كيد يراقب الأفق. كانت الشمس تغيب ببطء خلف الماء، وتلون السماء بلون النحاس المحترق.

قال في نفسه : كم هو غريب هذا العالم...

عندما كنت أخدم التاج كنت أقتل الرجال أنفسهم الذين أقتلهم الآن.

لم تتغير المدافع. لم تتغير الأمواج. لم تتغير السماء. الذي تغير فقط هو الاسم الذي يطلقونه علي.

ظل ينظر إلى الأفق.

ثم همس : هل أنا قرصان ؟ أم أنني مجرد رجل تأخر العالم في فهمه ؟

لكن البحر ، كعادته، لم يمنحه جواباً.

واكتفى بأن أرسل موجة جديدة لتتحطم على الصخور، كأن المحيط كله كان يقول له : إن بعض الأسئلة خُلقت لتبقى بلا إجابة.

وربما كان هذا هو السر الحقيقي الذي أحاط بالكابتن كيد من كل جانب...

أنه لم يكن رجلاً واحداً قط. بل كان رجلين يعيشان في جسد واحد ؛ تاجر نيويورك الهادئ الذي يحلم بالثراء والاستقرار ، وقبطان

البحر الذي لا يستطيع مقاومة نداء الأفق البعيد. وبين الرجلين قامت حرب صامتة لم يرها أحد.

حرب لم تستخدم فيها المدافع ولا السيوف. بل استخدمت الذكريات ، والخوف ، والطموح ، والوحدة ، وإغراء القوة.

وفي النهاية...

ربما لم ينتصر أي منهما.ربما انهزما . وربما كان البحر هو المنتصر الوحيد دائماً.

# الكنز الذي أوقع الكابتن كيد

كان الليل قد بسط عباءته السوداء فوق مياه الأطلسي ، وراحت الأمواج تتهادى تحت ضوء النجوم كأنها أنفاس كائن هائل نائم في أعماق العالم. داخل القاعة الصغيرة المضاءة بمصابيح الزيت، جلس الشابان يصغيان إلى السيدة ليدي دريك، وقد ارتسم على وجهها ذلك التعبير الغامض الذي يسبق الحكايات الكبرى، الحكايات التي لا تروي الأحداث فحسب، بل تكشف أيضاً ما يختبئ في أعماق البشر.

قالت بصوت هادئ : وتسألاني ماذا فعلت البحرية الإنجليزية لمطاردة وليم كيد ؟

ساد الصمت لحظة، ثم تابعت : لم يكن القبض عليه أمراً سهلاً كما قد يظن البعض. لقد كان رجلاً يعرف البحر كما يعرف المرء خطوط كفه، ويعرف السياسة كما يعرف اتجاه الرياح. كان حذراً، شديد الذكاء، قليل الثقة بالناس، حتى إن كثيراً من البحارة كانوا يقولون إن الكابتن كيد يستطيع أن يشم رائحة الخيانة قبل أن تولد في صدور أصحابها.

رفع الشاب رأسه متعجباً : إذاً، كيف سقط ؟

ابتسمت ليدي دريك ابتسامة خفيفة امتزج فيها الإعجاب بالأسف.

لأنه ارتكب خطأً واحداً فقط... خطأً لا أدري حتى اليوم كيف ارتكبه وهو الرجل المعروف بحذره الشديد.

سألها الآخر في لهفة : وما ذلك الخطأ يا ليدي دريك ؟

أجابت وهي تنظر نحو النافذة حيث كانت الريح تهز ستائرها :

دخل ميناء نيويورك رافعاً العلم البريطاني فوق صارية السفينة أدفيس.

ارتسمت الدهشة على الوجوه.

ولكن هذا أمر طبيعي ، أليس كذلك ؟ لقد كان تاجراً كبيراً يحمل تفويضاً من الملك البريطاني لمطاردة القراصنة ، وليس قرصاناً هارباً من العدالة.

هزت رأسها ببطء.

نعم... كان هذا ما يعتقده هو أيضاً.

صمتت قليلاً ثم تابعت : ما إن رست السفينة حتى غادرها مرتدياً زيه الرسمي ، وسيفه معلق إلى جانبه، واتجه بثقة نحو مقر الحاكم البريطاني الجديد في نيويورك، اللورد مومفورد، حاملاً معه التقارير التي توثق نشاطه في مطاردة القراصنة، تنفيذاً للأوامر الملكية التي كلف بها قبل سنوات.

كانت خطواته ثابتة ، وكان يظن أن أبواب الحاكم ستفتح له تكريماً ، وأن الأوسمة ربما تنتظره. لكنه ما إن دخل ساحة القصر حتى خرجت إليه مجموعة من الجنود المسلحين. في البداية ظن أنهم جاؤوا لتحيته.

غير أن قائد الحرس صاح : باسم التاج البريطاني، أنت معتقل!

تجمدت ملامح كيد.

حدق في الوجوه المحيطة به غير مصدق.

معتقل ؟ !

لم يكد يتم كلمته حتى أحاطت به البنادق من كل جانب. انتزع أحد الجنود سيفه. وثبت آخرون على ذراعيه. وسمع صوت الحديد وهو يطبق على معصميه.

لأول مرة منذ سنوات طويلة شعر وليم كيد بثقل القيود. ولأول مرة شعر أن البحر، بكل عواصفه وأخطاره، كان أرحم من البشر.

قال الشاب بدهشة : ولماذا غدر به الحاكم؟ هل كانت هناك أوامر سرية من الأميرالية البريطانية ؟

ابتسمت ليدي دريك ابتسامة غامضة. كلا...

ثم أضافت : ما حدث كان أشبه بقصة خرجت من أفلام القراصنة التي نشاهدها اليوم.

اقترب الشابان منها أكثر.

قالت : قبل أشهر من ذلك، كان الكابتن كيد قد طرد بحاراً فرنسياً مشاغباً من خدمته قرب جزيرة باربودا الخاضعة للنفوذ الفرنسي.

كان اسم البحار جان مورو. رجل سريع الغضب، حاد اللسان، لا يعرف معنى الانضباط.

ولأن الكابتن كيد لم يكن يتسامح مع الفوضى على ظهر سفينته، فقد أمر بإنزاله إلى الجزيرة وتركه هناك مع بعض المؤن والماء.

لم ينس جان مورو تلك الإهانة. كانت كرامته تنزف أكثر من جوعه. وفي كل ليلة كان يجلس على شاطئ الجزيرة ويحدق نحو الأفق مردداً : سأجعلك تندم يا كيد... أقسم أنني سأجعلك تندم.

وبعد أسابيع طويلة تمكن من الوصول إلى نيويورك على متن سفينة فرنسية تجارية.

وهناك سمع أن الحاكم الجديد وصل لتوه إلى المدينة. رأى في الأمر فرصة لا تعوض. دخل قصر الحاكم وطلب مقابلته بصورة عاجلة.

جلس اللورد مومفورد خلف مكتبه الضخم المصنوع من خشب البلوط، بينما وقف البحار الفرنسي أمامه بثياب ممزقة ووجه أنهكته الشمس والبحر.

قال الحاكم : ما الذي جاء بك ؟

انحنى مورو قليلاً وقال : أحمل إليكم سراً خطيراً يتعلق بالكابتن وليم كيد.

رفع الحاكم رأسه باهتمام.

تفضل.

أخذ البحار نفساً عميقاً وبدأ روايته : حدث ذلك يا سيدي ونحن نعبر تخوم البحر الكاريبي. كان الكابتن كيد معتاداً على ترك القيادة ليلاً لمساعده الضابط جورج شاركو، بينما يختلي بنفسه في مقصورته.

⊥

وفي تلك الليلة لم أستطع النوم. كان الحر شديداً، والهواء داخل السفينة خانقاً. فصعدت إلى السطح واستلقيت قرب المؤخرة علني أحظى

بقليل من النسيم. كانت السماء بلا قمر. والبحر أشبه بصفيحة سوداء لا نهاية لها.

صمت قليلاً ثم تابع : وبعد منتصف الليل تقريباً رأيت شيئاً غريباً.

رأيت الكابتن كيد بنفسه يخرج من المقصورة، يرافقه مساعده جورج شاركو. كانا يحملان صندوقاً خشبياً ضخماً. صندوقاً لم أر مثله في حياتي. كان محكم الإغلاق بأقفال كثيرة، ومشدوداً بأحزمة فولاذية وسلاسل سميكة. بدا ثقيلاً إلى درجة أن الرجلين كانا يلهثان وهما يحملانه. أنزلاه إلى قارب صغير وربطاه جيداً. ثم اتجها به نحو جزيرة قاحلة ظهرت لنا صباح ذلك اليوم في الأفق.

سأله الحاكم : وهل تعرف اسم الجزيرة؟

هز مورو رأسه.

لا يا سيدي.

ثم أضاف : لكنني كنت قد سألت الكابتن عنها صباحاً.

فقال لي ساخراً : وما شأننا بجزيرة لا تنبت شجرة ولا يسكنها إنسان ؟

رفع الحاكم حاجبيه.

تابع البحار : لكنني حين رأيته يتجه إليها في قلب الليل تغير كل شيء.

سألت نفسي : لماذا يحمل هذا الصندوق إلى جزيرة مهجورة ؟ ولماذا يذهب بنفسه ؟ ولماذا كل هذه السرية ؟

صمت قليلاً ثم قال :

كنت أريد أن أتبعهما ، لكنني خفت.

قال الحاكم : خفت من ماذا؟

نظر مورو في عينيه وقال : خفت أن يقتلني الكابتن كيد.

ساد الصمت داخل الغرفة.

قال الحاكم ببطء : هل سبق أن قتل أحداً من رجاله ؟

اقترب مورو خطوة واحدة وقال : يا صاحب السعادة... إن الرجل الذي يخدع الناس بوجهه الهادئ وكلامه المهذب ليس كما يبدو. إنه أخطر رجل عرفه البحر الكاريبي. إنه قرصان لا يرحم. كان يهاجم السفن التجارية ويستولي على حمولاتها. وكان كل من يقاومه يلقى مصيراً أسود.

ورأيت بأم عيني ركاباً يلقون في البحر لأنهم رفضوا تسليم ما يملكون.

تغيرت ملامح الحاكم.

أما مورو فتابع بصوت منخفض :

كنت أراقبه أحياناً وهو يقف وحده عند مقدمة السفينة ليلاً.

لم يكن وجهه يشبه وجوه المنتصرين. كان يحمل شيئاً من الحزن. شيئاً من الخوف. كأن الأشباح التي صنعها بيديه كانت تسير خلفه حيث ذهب.

أذكر ليلة سمعته يقول لنفسه : الذهب لا يشتري النوم.

لم أفهم عبارته آنذاك. أما اليوم فأفهمها جيداً. كان الرجل يخاف من كنوزه أكثر مما يخاف من أعدائه.

وفي تلك الليلة حين عاد من الجزيرة، بدا مختلفاً. كان صامتاً. شاحب الوجه. وكأنه دفن جزءاً من روحه هناك مع ذلك الصندوق. توقف مورو عن الكلام.

أما الحاكم فظل صامتاً طويلاً.

كانت نيويورك آنذاك مدينة صغيرة ، لكن الأخبار فيها كانت تنتشر أسرع من الريح.

وخلال أيام قليلة بدأت الشائعات تدور في الحانات والمرافئ.

قال البعض إن كيد أخفى كنزاً هائلاً. وقال آخرون إنه دفن مجوهرات ملوك الهند. وقال غيرهم إنه أخفى وثائق تدين رجالاً نافذين في لندن نفسها.

لكن الحقيقة كانت أكثر تعقيداً.

أما وليم كيد، فكان في زنزانته الحجرية الباردة يحدق في الجدار بصمت. كان يسمع أصوات الأمواج البعيدة تصل إليه مع الريح. كم بدا البحر قريباً وبعيداً في آن واحد.

جلس يفكر : كيف انتهى بي الأمر هنا ؟ هل أخطأت حين وثقت بالتاج البريطاني ؟ هل كنت مطارداً لأنني قرصان ؟ أم لأنني أعرف أكثر مما ينبغي ؟

كانت الأسئلة تنهش روحه.

تذكر سنوات شبابه. تذكر أول رحلة بحرية. وتذكر الحلم القديم. لم يكن يريد الذهب. ولم يكن يريد الشهرة. كان يريد فقط مكاناً في هذا العالم القاسي. لكنه اكتشف متأخراً أن البحر لا يمنح شيئاً مجاناً. وأن كل موجة تحمل معها ثمناً يجب دفعه.

أغمض عينيه. ورأى الجزيرة من جديد. رأى الرمال البيضاء.

ورأى الصندوق.

وسمع صوت السلاسل وهي تحتك ببعضها في الظلام.

فتح عينيه فجأة.

وهمس لنفسه : ربما كان يجب أن أتركه في قاع البحر.

في الخارج كانت الإمبراطورية البريطانية تستعد لمحاكمته.

أما داخل الزنزانة، فكان وليم كيد يحاكم نفسه بنفسه.

وتلك... كانت المحاكمة الأصعب.

# كنز الكابتن كيد الأخير
# اعترافات البحّار الذي عاد وحده

كان الليل يلف قاعة الحاكم بثوبه الثقيل ، وكانت الريح القادمة من الميناء تصفر بين شقوق النوافذ العالية كأنها تحمل أنين السفن الغارقة وأسرار الرجال الذين ابتلعتهم البحار.

وقف البحّار جان مورنو أمام الحاكم ، شاحب الوجه، متعب العينين، كأن الملح قد تحجر فوق روحه قبل أن يتحجر فوق جلده. كانت يداه ترتجفان، لا من برد الشتاء الإنجليزي، بل من ذكرى تلك الليلة التي غابت فيها الحقيقة في بطن جزيرة قاحلة، ولم يعد منها سوى رجل واحد.

رفع الحاكم بصره إليه وقال بصوت بارد : إذن، ماذا حدث بعد أن غادر الكابتن وليم كيد الجزيرة ؟

ابتلع مورنو ريقه بصعوبة، ثم قال : لم يغادرها يا سيدي إلا بعد أن أودعها سر عمره كله.

ساد الصمت.

اقترب الحاكم من الطاولة الخشبية الثقيلة وقال :تحدث بوضوح.

تنهد البحار طويلاً، ثم قال : قبل الفجر بقليل، عاد الكابتن كيد من الجزيرة القاحلة. عاد وحده... هو والصندوق.

تجمدت الوجوه حوله.

ومساعده ؟

خفض مورنو عينيه إلى الأرض.

لم يعد معه أحد.

تبادل الحاضرون النظرات.

قال الحاكم ببطء : وما الذي كان يحويه ذلك الصندوق ؟

رفع مورنو رأسه، وكأن المشهد عاد أمام عينيه بكل تفاصيله.

كان يحوي العالم كله يا سيدي... عالم القراصنة بأسره.

ثم أردف : عقود من اللؤلؤ ، أكواماً من الياقوت ، سبائك من الذهب الإسباني، تيجاناً صغيرة نزعت من خزائن النبلاء، ساعات مرصعة بالألماس، وأيقونات فضية سلبت من كنائس المستعمرات. كان يحمل غنائم عام كامل من النهب والمطاردة والدم والنار.

صمت قليلاً.

كان يحمل ذاكرة الجرائم كلها.

رفع الحاكم حاجبيه.

— وأنت تظن أنه دفنه هناك ؟

أجاب مورنو دون تردد : لا أظن... بل أعلم.

ثم أضاف بصوت خافت : وأعلم أيضاً أن مساعده لم يغادر الجزيرة لأنه أصبح جزءاً من ذلك الكنز.

ساد صمت ثقيل.

هل تقصد أن كيد قتله ؟

أغلق مورنو عينيه للحظة.

الكنز يا سيدي لا يحب الشهود.

كانت العبارة أشد وقعاً من الاعتراف نفسه.

ظل الحاكم صامتاً للحظات طويلة قبل أن يسأل : وكيف تمكنت من الفرار من سفينته دون أن يطاردك ؟

ارتسمت على وجه مورنو ابتسامة مريرة.

لأن غروره كان أكبر من خوفه.

ثم تابع : عندما وصلنا إلى جزيرة سانتا أسكادس ، ترك السفينة وذهب لزيارة زوجته وأطفاله الذين كانوا يقيمون في قلعة حجرية منيعة فوق الجرف المطل على البحر.

رفع الحاكم رأسه : زوجته كانت هناك؟

نعم يا سيدي. كان يعيش حياتين في آن واحد ؛ حياة التاجر المحترم في وضح النهار، وحياة القرصان الذي ترتجف السفن من ذكر اسمه في الليل.

أطرق مورنو برأسه.

كانت الجزيرة تسمى بين البحارة جزيرة القراصنة، لأن الصخور التي تحيط بها تجعل اقتحامها ضرباً من المستحيل.

تنهد طويلاً.

هناك سرقت قارباً صغيراً وفررت تحت جنح الظلام. كنت أسمع هدير الأمواج خلفي وأتوقع في كل لحظة أن يظهر كيد على ظهر سفينته ويطلق المدافع نحوي.

رفع رأسه.

لكن البحر كان في صفي تلك الليلة.

وإلى أين ذهبت ؟

إلى جزيرة موستيكا، ومنها ركبت سفينة متجهة إلى نيويورك لأحذر سعادتكم.

تقدم الحاكم نحوه.

تحذرني من ماذا ؟

قال مورنو : من أن الكابتن وليم كيد ليس صياد القراصنة كما يدعي... بل هو ملكهم غير المتوج.

كان اسم وليم كيد يتردد في الممرات مثل رصاصة أطلقت داخل كنيسة.

قال مورنو : لقد كان يهاجم السفن باسم القانون، ثم يبيع غنائمها باسم التجارة، ثم يرفع تقاريره إلى التاج البريطاني بصفته حامياً للبحار.

رفع عينيه نحو الحاكم مباشرة.

لا تدعه يخدعك يا سيدي.

⊥

وحين وصلت كلمات البحار إلى أروقة الحكم، لم تمض ساعات حتى كان الكابتن وليم كيد يدخل قصر الحاكم بثقة المنتصرين.

كان يرتدي معطفه الأزرق الداكن ، ويحمل في ملامحه هدوء الرجال الذين اعتادوا الكذب حتى صدقوا أنفسهم.

لكنه فوجئ بالجنود يحيطون به من كل جانب.

وضع يده على مقبض سيفه.

ما معنى هذا ؟

أجاب الحاكم :

باسم جلالة الملك... أنت رهن الاعتقال.

لأول مرة منذ سنوات طويلة شعر وليم كيد بأن الأرض تميل تحت قدميه.

همس : من خانني ؟

ولم يكن بحاجة إلى جواب. فقد عرف الاسم فوراً. جان مورنو.

⊥

أرسل الحاكم إلى لندن تقريراً مفصلاً بكل ما رواه البحار الهارب. لكن الوقت كان قد تأخر. فقد غادرت السفينة أدفيس المينا ء قبل وصول أوامر التفتيش.

وبدأ سباق طويل بين الإمبراطورية البريطانية وشبح صندوق مدفون في مكان مجهول.

⊥

وصل كيد إلى لندن مكبلاً بالحديد.

ووصل مورنو أيضاً، لكنهما وضعا في سجنين متباعدين.

كان الحراس يدركون أن لقاءً واحداً بين الرجلين قد ينتهي بجريمة أخرى.

في التحقيق الأول وقف كيد شامخاً.

قال القاضي : هل تعترف بأنك قرصان ؟

ابتسم كيد.

أنا تاجر من نيويورك.

وهل تعرف جان مورنو ؟

بحار كاذب يبحث عن النجاة على حسابي.

وماذا عن الصندوق ؟

ابتسم مجدداً.

أي صندوق ؟

⊥

مر عام كامل. كانت السفن البريطانية تمشط الجزر واحدة تلو الأخرى. كانت الخرائط تفتح فوق الطاولات العسكرية. وكان الضباط يشيرون إلى الجزر الصغيرة بأصابع مرتجفة. كل جزيرة كانت احتمالاً. وكل صخرة كانت ربما تخفي تحتها ثروة تكفي لشراء ممالك بأكملها.

لكنهم لم يجدوا شيئاً.

عادوا كما يقول البحارة : بخفي حنين.

⊥

حين فشل البحث، بدأ التعذيب. في الزنزانة الرطبة داخل سجن أولد جيت، كان وليم كيد يسمع وقع الخطوات قبل وصول الجلادين.

وكان يعرف السؤال قبل أن يطرح.

أين الكنز ؟

وكان يجيب دائماً بالجملة ذاتها : —أنا وليم كيد التاجر النيويوركي، ولست القرصان الذي انتحل اسمي.

كان الجلاد يصرخ : أين أخفيت الصندوق ؟

فيجيبه : لا أعرف أي صندوق.

كانوا يظنون أن الألم سيكسر ذاكرته. لكن الإنسان حين يمتلك سراً أكبر من حياته، يصبح الموت نفسه أقل قيمة من الاعتراف.

⊥

وفي الليالي الطويلة كان كيد يجلس وحده داخل زنزانته. هناك فقط كان القناع يسقط.

كان يحدث نفسه : هل أخطأت حين دفنت الكنز ؟ هل كان عليّ أن أهرب إليه ؟ هل كانت الثروة تستحق كل هذه الدماء؟

ثم يبتسم.

نعم.

كان يعرف أن الذهب لا يمنح السعادة. لكنه كان يؤمن بأنه يمنح السلطة. والسلطة في نظره كانت أثمن من الحياة نفسها. أحياناً كان يتذكر مساعده المدفون في الجزيرة.

كان يرى وجهه في الظلام. يسمع صوته.

لماذا أنا يا كابتن ؟

فيجيبه داخل خياله : لأن الأسرار لا تعيش إلا في المقابر.

ثم يعود الصمت من جديد.

⊥

بعد التعذيب جاءت الإغراءات.

دخل أحد المسؤولين إلى زنزانته وقال :

ارسم لنا خريطة الجزيرة، وسنمنحك حريتك.

صمت كيد.

أضاف الرجل : سنمنحك جزءاً من الكنز أيضاً.

ضحك كيد لأول مرة منذ شهور. ضحكة قصيرة وجافة.

تريدون أن تشتروا مني الشيء الوحيد الذي ما زلت أملكه.

وما هو ؟

سري.

⊥

في الثامن من مايو عام 1701 أعيد تقديمه إلى المحكمة.

كان وجهه شاحباً، وجسده منهكاً، لكن عينيه ظلتا تحملان ذات البريق القديم.

أعاد مورنو شهادته كاملة.

وأعاد القضاة أسئلتهم كاملة.

وأعاد كيد إنكاره كاملاً.

قال القاضي : إن اعترفت خففت العقوبة.

صمت.

هذا طلب الملك وليم الثالث شخصياً.

رفع كيد رأسه ببطء.

وقال : أنا الكابتن وليم كيد، التاجر النيويوركي وعضو مجلس أعيان نيويورك، والمكلف من جلالة الملك بمحاربة القرصنة في البحار الجنوبية.

صاح القاضي : وأين الكنز؟

نظر إليه كيد طويلاً.

ثم قال : ربما يوجد فقط في خيالكم.

⊥

صدر الحكم بالإعدام شنقاً على الرصيف السابع في ميناء لندن.

في صباح التنفيذ كانت السماء رمادية كأنها قطعة حديد ضخمة معلقة فوق المدينة.

وقف كيد فوق منصة الإعدام. نظر إلى النهر. إلى السفن. إلى الأشرعة البعيدة. وللمرة الأولى منذ سنوات طويلة شعر بالحنين إلى البحر.

اقترب منه الكاهن.

هل لديك اعتراف أخير ؟

ظل صامتاً.

ثم قال :

البحر وحده يعرف الحقيقة.

وأين الكنز ؟

ابتسم. ابتسامة صغيرة بالكاد رآها أحد.

لو أخبرتكم... فلن يبقى لي شيء آخذه معي إلى الموت.

سقط الباب الخشبي تحت قدميه. وانتهى كل شيء. أو هكذا ظن الناس.

⊥

لكن الكنز لم يظهر.

مرت السنوات. ومات البحارة الذين بحثوا عنه. ومات الضباط الذين رسموا الخرائط. ومات القضاة الذين أصدروا الأحكام.

وبقيت الجزيرة القاحلة صامتة كما كانت دائماً. تستمع إلى الأمواج. وتخفي تحت ترابها سراً أثقل من الذهب.

أما السؤال فقد ظل حياً بعد موت الجميع :

هل كان وليم كيد قرصاناً ينكر جرائمه ؟ أم كان رجلاً بريئاً دفن معه التاريخ اسمه الحقيقي ؟

لا أحد يعرف.

**لكن البحر...** ذلك الشاهد العتيق الذي لا ينام... ما زال يحتفظ بالإجابة في أعماقه الزرقاء البعيدة.

## كنز الكابتن كيد
## الحلم المدفون عند حافة البحر الكاريبي

وكنز الكابتن كيد؟ أحقاً لم يعثروا عليه حتى اليوم ؟

خرج السؤال من شفتي كمن يلقي حجراً صغيراً في بحيرة ساكنة، فإذا بالدوائر تتسع في الصمت المحيط بنا، وتمتد حتى أطراف القاعة القديمة التي كنا نجلس فيها. كانت النوافذ العالية تفتح أعينها على سماء رمادية، وكانت الريح القادمة من جهة النهر تحمل معها رائحة التاريخ الرطب، ذلك التاريخ الذي لا يموت، بل ينام أحياناً بين الأوراق الصفراء والخرائط الممزقة وحكايات البحارة العجائز.

رفعت ليدي دريك رأسها ببطء ، ثم نظرت نحوي بعينيها اللتين كانتا تحملان بريقاً يشبه بريق السيوف القديمة.

قالت بهدوء : نعم... لم يعثر عليه أحد حتى الآن.

ساد الصمت ثانية.

لم يكن ذلك الصمت فراغاً ، بل كان امتلاءً بالاحتمالات. كان يشبه المسافة بين وميض البرق وصوت الرعد، تلك اللحظة التي يظل فيها الإنسان معلقاً بين الخوف والرجاء.

تابعت ليدي دريك حديثها : قصص البحث عن كنز الكابتن كيد لا تكاد تُحصى. عشرات الرحالة، ومئات المغامرين، وآلاف الحالمين حملوا معاولهم وخرائطهم وأحلامهم، وسافروا عبر البحار والجزر والخلجان، لكن أحداً لم يعد بالكنز، أو حتى بأثر يقود إليه.

التفتُ إلى صديقتي الجالسة إلى جواري.

كانت تنظر إليّ بنظرة امتزج فيها الغضب بالسخرية وخيبة الأمل، ثم قالت وهي ترمقني بعينين متقدتين : إذن يا زميلي العزيز... لقد بعتني الوهم منذ بداية الرحلة.

كانت كلماتها تحمل حرارة العتاب أكثر مما تحمل قسوة الاتهام.

شعرت للحظة أنني طفل ضل طريقه في مدينة غريبة ، ثم أخذ يحاول إقناع الآخرين بأنه يعرف الاتجاه الصحيح.

ابتسمتُ في حرج ، لكنني لم أجد ما أقوله.

هل كنت أبيعها الوهم حقاً ؟ أم أن الإنسان لا يعيش إلا بالأوهام الكبيرة ؟ أليست الحضارات نفسها قد بدأت بحلم ظنه الناس مستحيلاً؟ وأليست القارات الجديدة قد اكتُشفت لأن رجلاً ما رفض أن يصدق خرائط عصره ؟

كنت أفكر في ذلك بينما انفجرت ليدي دريك ضاحكة ، ثم قالت : لا تكوني قاسية عليه يا آنسة، فزميلك لم يخدعك تماماً.

التفتت صديقتي نحوها بسرعة : ماذا تعنين؟

مالت ليدي دريك إلى الأمام قليلاً، وكأنها تستعد لإفشاء سر ظل حبيس الزمن قروناً طويلة.

قالت بصوت منخفض : لأن الأمل ما يزال قائماً.

شعرت بأن قلبي انتفض في صدري.

الأمل...

كلمة واحدة كانت كافية لتعيد إلى الغرفة دفئها، وإلى الخرائط معناها، وإلى الرحلة روحها.

سألتها بسرعة : كيف ؟

قالت : يقال إن سجاني وليم كيد في سجن أولد جيت القديم شهدوا أنه كان يقضي ساعات طويلة في رسم شيء ما على قصاصات الورق وجدران الزنزانة.

توقفت لحظة.

ثم أضافت : كانوا يعتقدون في البداية أنه يرسم البحر من ذاكرته، أو يستعيد طرق الملاحة التي عرفها في شبابه، لكن أحد الحراس أقسم قبل موته أنه رأى كيد يرسم خريطة لجزيرة مجهولة... الجزيرة التي أخفى فيها كنزه.

شعرت بأنفاسي تتسارع. كانت الكلمات تتساقط أمامي مثل قطع الذهب.

قلت : إذن الخريطة كانت موجودة بالفعل؟

أجابت : ربما.

ذلك ال«ربما» كان أوسع من المحيط الأطلسي كله.

قلت بحماس : وإذا كانت موجودة، فلا بد أنها ما تزال في الزنزانة! ربما أخفاها بين الأحجار أو خلف الجدران أو داخل أحد الشقوق الحجرية.

نظرت إليّ صديقتي وقد عاد الأمل يضيء عينيها.

قلت بسرعة أكبر : يمكننا أن نطلب من الحكومة الإنجليزية السماح لنا بالبحث داخل الزنزانة التي عاش فيها وليم كيد عاميه الأخيرين.

للحظة قصيرة تخيلت المشهد كله. أيدينا تزيح الحجارة القديمة. الغبار يتصاعد في الهواء.

ثم نعثر على لفافة جلدية صغيرة. نفتحها بارتجاف. خطوط باهتة. رموز غامضة. جزيرة على هيئة هلال. شجرة نخيل وحيدة. صخرة تشبه وجه إنسان. وعلامة حمراء تشير إلى المكان الذي نام فيه الذهب ثلاثة قرون كاملة.

لكن ليدي دريك كانت تنظر إليّ بذلك الحزن الذي يسبق الأخبار السيئة.

قالت بصوت هادئ : كان غيرك أشطر يا عزيزي.

شعرت وكأن باباً من الضوء أغلق فجأة.

تابعت : لقد فكر كثيرون قبلك في الأمر، بل إن بعثات كاملة حاولت الوصول إلى تلك الزنزانة.

سألتها : وماذا حدث ؟

قالت : سجن أولد جيت لم يعد موجوداً أصلاً.

ساد الصمت.

ثم أضافت : دمره الزلزال الكبير الذي ضرب لندن في القرن التاسع عشر، وبعد سنوات شُيد في مكانه المبنى الحديث لإدارة التحقيقات الجنائية في سكوتلانديارد.

شعرت بشيء ثقيل يهبط داخلي. أحياناً لا يهزم الإنسان خصومه، بل يهزمه الزمن نفسه.

كيف يمكن للمرء أن يحارب ثلاثة قرون من النسيان ؟ كيف يمكن أن يطارد ورقة صغيرة ربما تحولت إلى غبار قبل أن يولد أجداده ؟

نظرت من النافذة. كانت السماء تمطر بخفة.

تساءلت في داخلي : كم من الأسرار دفنتها المدن تحت شوارعها الجديدة ؟ كم من الأحلام سُحقت تحت أساسات المباني الحديثة ؟ كم من الرسائل ضاعت قبل أن تصل إلى أصحابها ؟

ربما كانت الخريطة هناك فعلاً. ربما كانت مختبئة داخل حجر لم يلتفت إليه أحد. وربما تحطمت مع الجدار في ليلة الزلزال، ثم اختلطت أوراقها بالطين والمطر والركام، وضاعت إلى الأبد.

لكن شيئاً داخلي رفض الاستسلام.

قلت : وربما لم يرسم خريطة أصلاً.

رفعت ليدي دريك حاجبيها.

تابعت : ربما كان أذكى من أن يترك خلفه طريقاً يقود إلى الكنز.

ابتسمت.

وقالت : هذا احتمال وارد أيضاً.

كانت صورة وليم كيد ترتسم في ذهني بوضوح غريب. رجل يقف في زنزانة باردة. الليل يهبط فوق لندن. وصوت السلاسل يتحرك كلما خطا خطوة.

يعرف أنه سيموت قريباً. يعرف أن البحر الذي أحبه لن يراه مرة أخرى. يعرف أن السفينة التي قادها لن تنتظره. ومع ذلك يحتفظ بسره حتى النهاية.

أي نوع من الرجال كان ؟ هل كان قرصاناً جشعاً ؟ أم بحاراً خانه عصره ؟ أم رجلاً أراد أن يترك جزءاً منه حياً بعد موته ؟

ربما لم يكن الكنز ذهباً فقط. ربما كان انتصاراً أخيراً على العالم الذي حكم عليه بالموت.

الإنسان يخاف من الفناء أكثر مما يخاف من الموت نفسه.

والكنوز المدفونة ليست سوى محاولة صغيرة لمقاومة النسيان.

قالت صديقتي فجأة : أتعلم؟ أحياناً أشعر أن العثور على الكنز سيكون أقل جمالاً من البحث عنه.

التفتُّ إليها.

كانت تبتسم بهدوء.

تابعت : ما دام الكنز مفقوداً، فإنه يستطيع أن يكون أي شيء نريده. يمكن أن يكون جبالاً من الذهب، أو صناديق من الجواهر، أو مخطوطات نادرة، أو حتى سراً أكبر من الثروة نفسها.

ابتسمت ليدي دريك وقالت : لهذا السبب تعيش الأساطير أطول من الحقائق.

أومأت موافقاً.

فالواقع له حدود، أما الخيال فلا شواطئ له.

مرت لحظات طويلة قبل أن تقول ليدي دريك : هناك من يعتقد أن الكنز مدفون في إحدى جزر البحر الكاريبي، وهناك من يظن أنه في ساحل أمريكي مهجور، وآخرون أقسموا أنهم رأوا إشارات تدل على وجوده في أماكن مختلفة تماماً.

ثم ابتسمت وأضافت : المشكلة أن كل الأدلة تقود إلى أماكن متناقضة.

قلت : وربما هذا ما أراده كيد بالضبط.

ماذا تقصد ؟

أن يجعل العالم كله يبحث في الاتجاه الخطأ.

ضحكت صديقتي : إذن يبدو أن الرجل نجح نجاحاً مذهلاً.

كانت الأمطار قد ازدادت خارج النافذة. وأخذ الضوء الرمادي يتسلل ببطء إلى داخل الغرفة.

شعرت فجأة أن الكابتن كيد لم يمت فعلاً. كان يعيش في كل خريطة تُفتح. وفي كل سفينة تغادر الميناء. وفي كل مغامر يقرر أن يطارد المستحيل.

فالأساطير لا تحتاج إلى أجساد كي تبقى حية. إنها تعيش داخل الرغبة الإنسانية القديمة في الاكتشاف. الرغبة في الوصول إلى الجزيرة التي لم يصل إليها أحد. والعثور على الباب الذي لم يفتحه أحد.

ومعرفة السر الذي أخفاه الزمن.

وقفتُ أمام النافذة أتأمل المطر.

ثم قلت بهدوء : إذن لا يزال كنز وليم كيد مدفوناً في مكان ما عند مشارف البحر الكاريبي.

قالت ليدي دريك : ربما.

قلت : ولا يزال المغامرون يطاردون السراب.

ابتسمت وقالت : وربما لا يكون سراباً.

نظرت إلى صديقتي.

كانت عيناها تلمعان مجدداً بذلك البريق الذي عرفته منذ بداية الرحلة.

بريق الذين يؤمنون بأن العالم أكبر من الخرائط. وأوسع من الحقائق. وأغنى من حسابات العقل الباردة.

قلت ضاحكاً : ومن يدري؟ ربما نكون نحن من يعثر عليه في النهاية.

ضحكت هي الأخرى : بعد كل هذا العناء، أظن أن من حقنا على الأقل أن نحلم بذلك.

أجبتها : كل الاكتشافات العظيمة بدأت بحلم صغير.

في تلك اللحظة أدركت شيئاً غريباً. ربما لم نكن نبحث عن الذهب فعلاً. ربما كنا نبحث عن أنفسنا. عن الطفل القديم الذي يسكن داخل كل إنسان، ويصر على أن الخرائط الناقصة تخفي عالماً أجمل خلف حدودها البيضاء.

ربما كان الكنز الحقيقي هو القدرة على الدهشة. والإيمان بأن المجهول لم يفقد سحره بعد.

خرجنا من القاعة بينما كانت السماء تواصل مطرها الهادئ.

وفي مكان ما، خلف المحيطات البعيدة، كانت جزيرة مجهولة تنام تحت الشمس الاستوائية. جزيرة لا يعرف أحد اسمها. ولا موقعها. ولا شكل شواطئها. لكنها ما تزال تحتفظ بسر رجل مات منذ قرون، ورفض أن يسلم مفاتيح حلمه لأحد.

وربما، في ليلة ما ، سيقف مغامر مجهول فوق رمالها الذهبية ، وينظر إلى البحر المظلم ، ثم يبتسم وهو يرى أول خيط يقوده إلى الحقيقة.

أما نحن ، فقد واصلنا السير ونحن نحمل معنا يقيناً واحداً فقط :

أن بعض الكنوز لا تُخلق لكي تُكتشف ، بل لكي تدفع البشر إلى مواصلة الرحلة.